بسم الله الرحمن الرحيم

معركة التقاليد

تأليف

الأستاذ محمد قطب

معركة التقاليد

هذه البلاد اليوم وفي الشرق الإسلامي كله في " هيجة " تتعلق بالتقاليد. ومعركة دائبة لا يفتر لها أوار.

هذه التقاليد " البالية ".. هذه التقاليد " العتيقة ".. هذه التقاليد " الرجعية ".. هذه التقاليد المتزمتة.. المتحجرة.. المتأخرة المتعفنة.. ينبغي أن تحطم ينبغي أن تدك من القواعد.. ينبغي أن تداس بالأقدام.

ينبغي أن ينشأ مجتمع جديد.. مجتمع متحرر.. مجتمع تقدمي.. مجتمع متطور.. مجتمع منطلق من القيود.

كذلك تدور معركة التقاليد.

وهي معركة حامية الوطيس.. ميدانها.. كل ميدان.

ميدانها البيت والطريق.. والسينما والمدرسة.. والترام والسيارة.. والصحيفة والمجلة.. والخطبة والكتاب.. والريف والمدينة.

وجنودها الناس أجمعون.

جنودها الشبان والفتيات.. والآباء والأبناء.. والمدرسون والطلاب.. والكتاب والكاتبات.. والأبرار والفجار.. وكل إنسانة وكل إنسان.

* * *

وقد كان أمراً طبيعياً أن تدور هذه المعركة في مصر وفي الشرق الإسلامي كله.

أمر طبيعي بالنسبة للأحداث التي عاشها الشرق في الفترة الأخيرة، وبالنسبة للتطورات والتقلبات التي عانتها هذه المنطقة في عالم السياسة وعالم الاقتصاد وعالم الفكر وعالم الثقافة.. في المفاهيم النظرية والتطبيقات العملية.. في الكليات والجزئيات.. وفي كل شأن من شئون الحياة.

لقد غفا العالم الإسلامي غفوة طويلة امتدت على الأقل قرنين من الزمان.. وكانت هذه الغفوة الطويلة نتيجة لفترة سابقة من الجمود والتحجر.. والجمود الفكري والشعوري والعملي.. الجمود الذي أحال الأفكار قواعد ميتة بغير روح.. وأحال الوجدان مشاعر خاوية من الأصالة والصدق.. وأحال الأعمال أداء آلياً خالياً من الحياة والإبداع.

الجمود الذي جعل العالم الإسلامي " يجتر " حضارته العظيمة الأولى، وأفكاره وتطبيقاته القديمة بلا زيادة، ولا يضيف إليها جديداً حياً يساوق خطو الزمن وخطو الحياة...

ثم أفاق العالم الإسلامي من غفوته على هزات عنيفة مزلزلة.

أفاق على وقع أقدام الغرب المستعمر يقتحم عليه داره، ويعيث فيها سلباً ونهباً وفساداً وتحطيماً لكل شيء مقدس وكل شيء عزيز.

أفاق.. وقام ينفض عنه تراب القرون.

ينفض عنه الجهل والجمود والتحجر.

ينفض عنه الكسل والخمول والتواكل.

وينفض عنه كذلك كثيراً من العقائد والأفكار.

وحدثت صدامات عنيفة بين الشرق والغرب.. وحدثت كذلك امتزاجات.

صدام بالسلاح، وصدام بالفكرة، وصدام بالعقيدة.

وامتزاج في السياسة، وامتزاج في الثقافة، وامتزاج في التقاليد.

ولم يكن معبر واحد يعبر منه الغرب إلى الشرق. بل كانت معابر شتى وطرائق متباينة.

فتارة هو غزو حربي يحمل معه عدة السلاح.

وتارة هو غزو اقتصادي يحمل رءوس أمواله التي يستثمرها لتخرج الذهب من الشرق وتدره هنالك على المستعمرين.

وتارة هو غزو فكري يحمل معه الكتاب والصحيفة والمعلم والمدرسة.

وتارة هو غزو روحي يستعمر العقائد في داخل الأرواح.

وهو دائماً غزو... سواء وضحت منه المعالم أم كانت خافية على الأفهام.

*   *   *

في وسط الهزة العنيفة التي أصابت الشرق على يد الغرب المستعمر.. وفي وسط الكفاح السياسي والاقتصادي والفكري الذي تلا لحظة الإفاقة... في خلال ذلك كله تحطمت كثير من تقاليد الماضي وأفكاره وعقائده ومفاهيمه. وكان أمراً طبيعياً أن تتحطم

وبحث المجتمع الناشئ عن تقاليد جديدة وأفكار وعقائد ومفاهيم.. وكان أمراً طبيعياً أن يبحث.

ومن خلال هذا البحث قامت المعركة العظمى.. معركة التقاليد.

هل نعيد بناء الماضي على أسسه التي كانت من قبل؟

هل نبني مجتمعاً جديداً من أساسه بصرف النظر عن القديم كله؟

هل يمكن أن يعود البناء القديم على أية صورة الصور؟

هل يمكن أن ينشأ مجتمع جديد لا صلة له إطلاقاً بالتراث القديم.. تراث البيئة، وتراث الفكر، وتراث العقيدة؟

هل نمزج بين القديم والحديث؟

وهل يمكن أن يحدث هذا المزج بين قيم متفاوتة، ومعايير متباينة، ومفاهيم متعارضة؟

بل هل هناك للبشرية كلها قديم يربطها؟

هل هناك معايير ثابتة على الإطلاق؟

هل ينبغي لأي جيل في الأرض أن ينظر وراءه؟

وإن جاز ذلك فيما مضى، في المجتمع الزراعي الراكد الآسن المتأخر المحدود الآفاق، فهل يجوز في المجتمع الصناعي، بل العصر الذري؟

هل يجوز للبشرية أصلا أن تكون لها تقاليد؟

أم إن هذه التقاليد معوقات مثبطة في عصر الذرة وعصر الصاروخ.. عصر الانطلاق الكامل من كل قيد.. عصر الوثبة الكاملة في الأرض وفي الفضاء... عصر التحرر الكامل في المادة وفي الإنسان؟

ذلك بعض وقود المعركة...

وما نريد هنا أن نتعجل الحكم على واحدة من هذه المسائل.

وإنما نريد في هذا البحث الصغير أن نعرض المسألة في منشئها، وفي تطورها، لعلنا على ضوء البحث أن نصل إلى الصواب.

ونرجو من الله التوفيق.

محمد قطب

جولة مع التاريخ

كيف انهارت التقاليد في أوربا؟

لقد كانت أوربا ذات يوم قارة ذات تقاليد.. فكيف حدث فيها ذلك التطور الهائل الذي حطم تقاليدها وأطلقها منفلتة من القيود؟

إن دراسة التاريخ في أوربا تفيدنا فائدة كبيرة في دراسة المعركة الحامية الدائرة اليوم في الشرق الإسلامي. فأوربا بشر ونحن بشر.. وبين البشرية كلها سمات مشتركة، وبينها صلات رحمة قريبة. ومن ثم يستطيع الإنسان في أي بقعة من الأرض أن يرقب خطوات أخيه الإنسان.. فيأخذ منها القدوة أو يأخذ منها عبرة التجربة وموعظة التاريخ.

* * *

وفي يوم من الأيام كانت أوربا – في مجموعها – مسيحية. وأياً كان تغلغل العقيدة في نفوس الأوربيين.. عميقاً أم سطحياً.. جاداً أم لاهياً.. أصيلا أم تقليدياً.. وجدانياً أم فكرياً.. فلقد كانت أوربا قبل ثلاثة قرون أشد تمسكا بعقيدتها ولا ريب مما هي اليوم، وأشد تأثراً بمفاهيمها وتصوراتها وأفكارها وإيحاءاتها مما هي في عصرها الحديث.

ونريد في هذه الجولة السريعة أن نتتبع خط الزمن في القرنين الأخيرين في أوربا، لندرس عوامل التطور واتجاه الأحداث. ونريد – لأسباب ستتبين بعد لحظة – أن نرسم خطاً واضحاً بين تصورات الناس وأفكارهم قبل دارون، وبعد دارون.

وليس في التاريخ خطوط حاسمة بطبيعة الحال، فكل خطوطه متداخلة متدرجة بطيئة التحول. ومع ذلك فبعض الخطوط بارز على صفحة الزمن، شديد الوضوح.

ولئن كانت أوربا في تاريخها كله غير عميقة التدين – في مجموعها – فلقد كانت التصورات الدينية المسيحية هي التي تسيطر على التفكير الأوربي، وتوجه – على الأقل – جانباً من منهج الحياة.

كان التصور المسيحي يقول إن هنالك إلها هو الذي خلق الكون والحياة، وخلق بعد ذلك الإنسان. وكان هذا التصور يقول إن للخالق قصداً من خلق الكون والحياة والإنسان. وإن للإنسان خاصة دوره الضخم في هذه الحياة.. فقد خلقه الله على صورته.

وكرمه وفضله على كل كائنات الأرض. وأعطاه مزايا ليست لغيره من المخلوقات. منها النطق، ومنها التفكير، ومنها الروح.

وكان هذا التصور فوق ذلك يقول إن الله أزلي ثابت، وإن قصده من خلق الإنسان هو كذلك قصد أزلي ثابت. ومن ثم يرتبون على ذلك – ترتيباً وجدانياً في الغالب وفلسفياً أحيانا – أن حياة الإنسان ثابتة، ونظمه ثابتة، وغرائزه ثابتة، وعقائده وأفكاره وتقاليده ثابتة.

وكان يغريهم بفكرة الثبات هذه أن الحياة في المجتمع الزراعي الإقطاعي كانت فعلا ثابتة النظم والقواعد والأفكار والتقاليد.. وأنها ظلت على ثباتها هذا فترة تقرب من ألف عام.

وكانت " معلوماتهم " في الفلك والطبيعة وعلم الحياة، تقول لهم إن كل شيء ثابت لا يتحول عن صورته. فالنبات بأنواعه هو هو منذ خلقه الله على الأرض لا يتغير. والحيوانات بأجناسها وأنواعها وفصائلها هي هي كما خلقها الله على صورها الموجودة عليها. والنجوم والأفلاك والأقمار والأرض على هيئتها منذ الأزل لا تحوير فيها ولا تبديل حتى يحل بها ما يحل يوم القيامة.

والإنسان كذلك.. منذ آدم إلى اليوم.. هو الإنسان. كل شيء فيه ثابت: جسمه وعقله وروحه.

ولقد يفترق إنسان عن إنسان، وشعب عن شعب، وجيل عن جيل في بعض السمات الشخصية وفي مدى العلم أو الجهل، ومدى الهوى أو الضلال. ولكن الإنسان – في مجموعه، وفي جميع حالاته – هو الإنسان. والدائرة التي يدور فيها واسعة حقاً ومتباينة الأجزاء حقاً، ولكنها في النهاية هي الدائرة الإنسانية المرسومة منذ الأزل لهذا الإنسان.

" الثبات " هو أصل الحياة وجوهرها الذي لا يتغير بمر الدهور.

وفي ظل هذه الفكرة " الثابتة " كانت للناس تقاليد موروثة وثابتة. تتغير قليلا وتتحور من جيل إلى جيل، ولكنها في مجموعها ذات أصول ثابتة ومفاهيم ثابتة. تقاليد تتعلق بالرجل والمرأة والطفل والأسرة والمجتمع والحياة...

وسرى في حس الناس أن هذه التقاليد مبنية من جانب على " الغرائز الإنسانية " الثابتة الراسخة... ومبنية كذلك على إرادة الله. مبنية على الدين.

وكان الدين دعامة قوية من دعائم التقاليد. فكلمة الله للبشر كلمة ثابتة. وهي كلمة مقدسة واجبة الرعاية والاحترام على مر الأجيال.

وفي الدين مثل أخلاقية معينة، تتحتم رعايتها. وقد يبعد الناس عنها قليلا أو كثيرا في حياتهم العملية. بل قد يتنكرون لها في معاملاتهم الشخصية تنكراً، ويخرجون عليها في بعض الأحيان علانية. ومع ذلك تظل - من حيث المبدأ - واجبة الرعاية، لا ينكر المنكرون حجيتها وأهليتها، وإن تعللوا في خروجهم عليها بشتى المعاذير.

ومن ثم كان الدين والأخلاق والتقاليد " ربطة " واحدة ووجهة واحدة. ومن ثم كذلك الدين والأخلاق والتقاليد في حسهم أموراً ثابتة لا تتغير بتغير الزمن، ولا تفعل فيها الأحداث.

* * *

وفي سنة ١٨٠٩ ولد دارون. وفي سنة ١٨٥٩ نشر كتابه " أصل الأنواع " وفي سنة ١٨٧١ نشر كتاب " أصل الإنسان ".

ورُسم خط واضح من خطوط التاريخ.

قب ذلك بقرون كان كوبرنيكوس وجاليليو قد اصطدما بفكرة الكنيسة الأوربية عن الكون ومركز الأرض منه، وهيئتها ودورانها. وذاق العالمان النكال والتعذيب بسبب موقفهما من الأفكار " المقدسة " " الثابتة " التي كانت تحتضنها الكنيسة وتنافح عنها بوصفها جزءاً من العقيدة وأصلا من أصول الدين..

وبذرت هناك بذور البغضاء بين العلم والكنيسة، وبدأ العلماء ينفرون من رجال الدين.

ولكن قروناً مضت رغم ذلك والأمور على حالها، والجماهير واقفة في صف الدين والكنيسة وفي صف الأخلاق والتقاليد.

حتى ظهر دارون.. ونشر نظريته في التطور، ونظريته في أصل الأنواع وأصل الإنسان.

هنالك زلزلت العقيدة من منبتها، والأفكار من أساسها.

لقد جاء دارون يقول إنه لا شيء " ثابت " على وجه الأرض: لا النبات.. ولا الحيوان.. ولا الإنسان.

وليس هناك قصد ثابت في الخليقة.. بل لا قصد على الإطلاق.

والخالق – الذي هو الطبيعة – لم يقصد في الأصل أن يخلق الإنسان، إنما هو قد جاء هكذا نتيجة لعملية التطور البطيئة التي استغرقت ملايين السنين.

و لم يكن " الإنسان " في منشئه إنساناً كما هو اليوم.. وإنما أصله حيوان.

لم يكن ينطق، و لم يكن يعقل، م يكن يقف على قدمين اثنتين، وبطبيعة الحال لم تكن له الخاصية التي أسبغها عليه التصور الديني.. لم تكن له " روح ".

حيوان...

وهزت نظريته المجتمع الأوربي كله، وقامت قيامة الكنيسة.

قالت الكنيسة: إن دارون كافر وملحد. وقال دارون: إن رجال الدين مخرفون.

وقامت معركة عنيفة لم يهدأ أوارها حتى كان كثير من العقائد قد انهار وانهال عليه التراب.

لقد وقفت الجماهير في أول الأمر في جانب الكنيسة.. في جانب العقيدة التي كانت عزيزة عليها وإن لم تعمل بمقتضياتها.. في جانب التقاليد الروحية والفكرية.. في جانب موروثاتها العقلية والوجدانية.. وفي جانب اعتزازها بشخصيتها.. اعتزازها بأصلها " الإنساني " الذي نفى عنه دارون الإنسانية وألحقه بالحيوان.

لكن موقف الجماهير بعد ذلك تغير..

فلئن كان قد عز عليها أن يسلبها دارون إنسانيتها، ويردها إلى أصل حيواني، فقد أخذت تشمت في الكنيسة ورجال الدين، ووجدت أن الفرصة سانحة للتخلص من نيرها المرهق وسلطانها البغيض.

لقد كانت الكنيسة في العصور الوسطى قد تحولت من معنى الرحمة السابغة والروحانية الصافية التي توحي بها طبيعة المسيحية، إلى سلطان دنيوي قاهر مذل. وراحت

تفرض على الناس ألوانا مختلفة من الإتاوات، إتاوات مالية وروحية وفكرية. تفرض عليهم الضرائب المرهقة والعشور التي تثقل كاهلهم، وتفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين، وتفرض عليهم أفكاراً معينة بوصفها كلمة السماء، من خالفها فهو ملحد وخارج على الدين.

وجدت الجماهير فرصة سانحة للإفلات من الغول البشع الذي يطاردها في يقظتها ومنامها، فانتهزت الفرصة ودخلت المعركة مهاجمة بعد أن كانت مدافعة. وأخذت تحصب الكنيسة بما تساقط في الأرض من الأنقاض... أنقاض العقيدة، وأنقاض الفكر، وأنقاض " الروح ".

وأياً كانت طبيعة المعركة ودوافعها فقد كانت من المعارك الحاسمة في التاريخ، وتركت في حياة الناس نتائج خطيرة بالغة الخطورة، وما يزال " المد " الذي أحدثته في أوربا يفيض حتى اللحظة بأخطر الأمور.

أول نتائجها زلزلة الإيمان بالله والعقيدة.

وثاني نتائجها زلزلة الإيمان بالإنسانية والإنسان ورفعته وسموه وروحانيته.

وثالث نتائجها زلزلة الإيمان " بثبات " أي نظام من النظم أو قيمة من القيم أو فكرة من الأفكار.

ورابع وخامس وسادس.. زلزلة كل شيء كان راكزاً من قبل، وتحطيم كل بنيان راسخ الأساس.

فكرة الله الخالق المدبر المريد ذي القصد لقيت أول زلزلة مباشرة على يد دارون في قضية خلق الإنسان، حين نفى دارون القصد، ونفى الخلق المباشر للإنسان بيد الله وأرجعه إلى عملية التطور، ونفى أن ثمة شيئاً في كيان الإنسان يمكن أن يكون " نفخة الله فيه من روحه " إذ قرر على سبيل الجزم الحيوانية المطلقة لأصل الإنسان.

ومن هان اضطر المتدينون بعد المعركة العنيفة التي اعتملت في وجدانهم وضمائرهم، أن يؤمنوا بالله – إن لم يكن من ذلك بد – كفكرة وجدانية غير منطقية، لا دخل لها بالواقع.. الواقع العلمي والواقع العملي والواقع المادي.. فليكن الله فكرة تشبع الوجدان الديني وتسبح بها الروح في تأملاتها، ولكن لا دخل له – سبحانه – بعملية الخلق وقوانين الطبيعة وسير الأمور في الأرض. أو أنه – بالكثير – قد خلق الكون وأودعه سننه

وطاقاته، ثم تركه يتطور، حسبما توصله إليه طاقة التطور، دون تدخل منه سبحانه في النتائج والإرادة.

أما غير المتدينين.. الذين كان التدين عبئاً مفروضاً عليهم بحكم التقاليد وسيطرة الكنيسة ورجال الدين.. فقد وجدوا في نظرية دارون مهرباً من الدين كله، ومخلصاً من فرائضه وقيوده. فلما واجهتهم المشكلة التي تواجه كل عقل مؤمن أو غير مؤمن: مشكلة الخلق الأول ونشأة الحياة على سطح الأرض، هربوا من " الله " إلى " الطبيعة " التي قال عنها دارون: " إنها تخلق كل شيء.. ولا حد لقدرتها ". فكانت الطبيعة بالنسبة إليهم إلهاً جديداً يعبدونه. إله له معظم صفات الله، إلا القصد والإرادة. وفوق ذلك ليست له كنيسة تطارد الناس بالإتاوات، وتحير عقولهم بالمشاكل، وتفرض عليهم قواعد الخلق والسلوك. فهو إذن إله لا يلزم الناس بالتطهر، ويستطيع عباده أن ينفلتوا من القيود.

و لم تكن هذه هي الزلزلة الوحيدة لفكرة العقيدة.

فقد تغلغلت فكرة " التطور " في أفكار الناس ووجداناتهم، وأخذت المكان الذي كانت تحتله من قبل فكرة " الثبات ".

وما دام كل شيء يتطور، ولا شيء يثبت على حاله – كما قال دارون – فلماذا لا يشمل التطور فكرة الله ذاتها وفكرة العقيدة؟

بل لقد تطورت العقيدة فعلا على مدار التاريخ..

وصحا العلماء إلى " اكتشاف جديد " في عالم الدين.. لم يكن الأمر في مسألة الدين أمر ضلالة وثنية انتهت إلى عقيدة صحيحة ثابتة مهتدية إلى الله. وإنما كانت فكرة " متطورة " بدأت بعبادة الأب، ثم عبادة الطوطم [1]، ثم عبادة الوثن، ثم عبادة الله والإيمان بالوحي والرسالة. وغدا.. أو اليوم.. " تتطور " الفكرة من أساسها، ولا تعود عبادة لله.. ولتكن مثلا عبادة للطبيعة أو غيرها من المعبودات.. أو.. لا عبادة على الإطلاق!

وغير هذا وذلك وجد اتجاه عقلي يميل إلى إنكار كل شيء، وعدم الإيمان إلا بما تثبته التجربة أو تدركه الحواس..

---

[1] الطوطم (Totem) هو معبود تعبده القبيلة، ويكون في الغالب حيوانا معينا تعتقد القبيلة أن دماءه تجري في كل فرد من أفرادها. وهم يقدسونه فلا يذبحونه ولا يقتلونه " إلا في مناسبات دينية خاصة، وعندئذ يشربون دماءه لتجري في عروقهم من جديد، ولكل قبيلة طوطمها الخاص.

لقد قال الناس لأنفسهم – أو قال " العلماء " أولا وتبعتهم الجماهير بعد ذلك – لقد كنا نؤمن بأشياء كثيرة ورثناها عن أجدادانا أو لقنتها لنا الكنيسة ورجال الدين، وقد " ثبت " أنها غير صحيحة، ثبت أن الأرض ليست مركز الكون، وكانت الكنيسة تقول ذلك. وثبت أن الأرض كروية وكانت الكنيسة تقول: إنها منبسطة. و " ثبت " أن الإنسان من أصل حيواني وكانت الكنيسة تقول: إن الله خلقه على صورته، خلقاً إبداعياً غير متعلق بشيء قبله أو بعده.. وإذن فلنترك عقائدنا الموروثة جملة فإنها مجموعة من الخرافات. ولنبدأ من جديد. بلا عقائد سابقة. بلا أفكار مسلم بها. لنبدأ من نقطة الصفر. لا نؤمن إلا بما نراه بعيوننا وتدركه حواسنا وتجاربنا.. ولننح عن أذهاننا فكرة الله وتدخله في الخلق أو إرادته منه. فلندرس الكون في معزل عن الله. فنحن لم نر الله. ولم نر كيف تدخل في الكون. فليظل الله لمن يريد أن يرمن به في خياله. أما نحن – الواقعيين – فلن نؤمن بشيء لا تدركه الحواس.

كذلك تزلزلت فكرة الدين.

أما " الإنسان " فقد فَقَدَ كل ما كان التصور الديني قد أسبغه عليه من رفعة وتفرد وروحانية وأخلاقية، مردها جميعاً إلى نفخة الله فيه من روحه وقصده الأزلي في خلقه، وهما اللذان قالت الداروينية إنهما خرافة صنعتها الأساطير. ونزعت عنه " القداسة " التي كان يستمدها من خلق الله له على صورته، وعنايته به – سبحانه – في إفراده بشتى المزايا، وخاصة بتلك الشفافية الروحانية التي ترفعه على سائر الحيوان. لقد صار – على هدى الداروينية – حيواناً لا رفعة فيه ولا روحانية، وصار من جهة أخرى مطلقاً من كل قواعد الخلق وقواعد المجتمع وقواعد التقاليد، لأن هذه كلها " ثوابت " زائفة لا ثبات فيها، وناشئة عن " ضلالة " سابقة مستمدة من الدين.

كل شيء يتطور. والمجتمع كذلك يتطور.. تتطور نظمه وأفكاره ومفاهيمه.

فإذا كانت " الأخلاق " بمفهومها التقليدي شيئاً جميلا في الماضي، ومنسباً لمرحلة معينة من التطور، فليس من الضروري أن تكون اليوم جميلة ولا مناسبة.. لأن المجتمع قد تطور... و " المجتمع " هو الذي صنع هذه الأخلاق من قبل... وليس الله... وليس العقيدة – وإن كان الناس قد أسندوها من قبل غفلة منهم إلى الله والعقيدة – فالمجتمع إذن هو صاحب الشأن في تعديلها أو الإبقاء عليها... وقد قرر للتعديل.

وإذا كانت " الأسرة " بمفهومها التقليدي شيئاً جميلا في الماضي، ومناسباً لمرحلة معينة من التطور فليس من الضروري أن يكون هذا المفهوم اليوم مناسبا ولا جميلا.. بل

ليس من الضروري أن توجد أسرة على الإطلاق... فليس الله الذي صنع الأسرة كما فهمت الجماهير خطأ من قبل، وإنما هي احتياجات المجتمع... والمجتمع حر اليوم في الإبقاء على الأسرة أو تفكيكها... وقد قرر التفكيك.

وإذا كانت المرأة من قبل زوجة وأما ولا زيادة، فليس ذلك أصلا من أصول الأشياء، ولا مبدأ ثابتاً لا يتغير... وإنما هي فكرة اجتماعية نشأت عن أسباب عدة... والمجتمع الذي أحاط هذه الفكرة من قبل بسياج من الصيانة، بل القداسة الزائفة، ودس فيها اسم الله والدين، هو المجتمع الذي يحطم اليوم هذه الفكرة، ويرفع سياجها الزائف، ويطلقها بلا سياج.

وإذا كانت " العفة " الجنسية قدساً من أقداس الماضي، فليس ذلك قيمة من القيم الثابتة الراسخة في حياة البشرية... إنما هي كانت كذلك في فترة من الزمن... وليس ما يمنع أن " تتطور " من أساسها، أو أن تصبح – إذا أراد المجتمع – رذيلة ينفر منها المتحضرون.

كذلك تزلزلت فكرة الأخلاق والتقاليد.

وزاد من شدة زلزالها أن الحاجز الأكبر الذي كان يمنع تأرجحها من قبل – إلى جانب العقيدة في الله – كان هو الإيمان برفعة الإنسان وروحانيته، والاستحياء من " الهبوط " إلى مستوى الحيوان، على اعتبار أن الإنسان مخلوق متميز متفرد، لا تقاس حياته وأعماله بمقياس الحيوان، ولا ينبغي له أن ينساق مع غرائزه حيث تميل... فاليوم قد انزاح هذا الحاجز... حاجز " الإنسانية " وصار الإنسان في عرف نفسه حيواناً عريق الأصول في الحيوانية. فهو إذن ليس في مستوى " رفيع " " يهبط " منه... وإنما هو دائماً في " طور " يؤدي إلى طور آخر... ولا رفعة ولا هبوط في مقياس الحيوان.

* * *

ومع الداروينية ولد التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ.

يقول التفسير المادي للتاريخ، أولا: إن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام.

ويقول ثانياً: إن القوى المادية - أو القوى الاقتصادية - هي التي تكيف الحياة البشرية، وتعطيها طابعها، وتنشئ أفكارها ومفاهيمها وعقائدها... حسب درجتها من التطور. فإذا انقلت البشرية من طور إلى طور - بحكم قوة التطور الدائمة المفروضة على الإنسان من خارج نفسه، والتي لا علاقة لها بإرادته الذاتية - فإن صورة الحياة تتغير، ومشاعر الناس تتغير، وأفكارهم ومفاهيمهم وعقائدهم تتغير، ويتغير كل شيء في المجتمع من أخلاق وعادات وتقاليد تغيراً حتمياً لا يملك السيطرة عليه أحد لأنه ليس من صنع البشر، وإنما هو من صنع البيئة المادية أو القوى الاقتصادية [٢].

ويقول ثالثاً: إن الأطوار التي تنتقل فيها البشرية هي في ذاتها أطوار حتمية لا فكاك منا ولا اختيار فيها. فهي مثلا تنتقل من الصيد إلى الرعي إلى الزراعة إلى الصناعة... وهي مثلا تنتقل من الخرافة إلى التدين.. إلى العلم، وكل طور من هذه الأطوار له عقائد محددة وعادات محددة ترسمها البيئة.. وحين ينتقل المجتمع من حالة إلى الحالة التالية لها - وهو انتقال حتمي - يأخذ بصفة حتمية كذلك مفاهيم الحالة الجديدة وأفكارها وعقائدها بلا اختيار.

ويقول أخيراً - وهو خلاصة القول السابق -: إن الأفكار والمشاعر والعقائد ليست هي التي تحرك الناس أو ترسم لهم سلوكهم العملي في واقع الحياة، وإنما هي تجيء لاحقة لكل وضع اجتماعي أو اقتصادي. فهي ليست قوة موجهة، فضلا على أنها لا تثبت على حال واحد، فهي متطورة على الدوام.

يقول ماركس: " في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها. وهي مستقلة عن إرادتهم.. فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم ".

ويقول " فردريك انجلز ": " تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي: وهو أن الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز

[٢] التفسيرالمادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ أخوان أو أبناء عمومة. وكل الفرق - إن كان هناك فرق- هو أن التفسير المادي للتاريخ يجعل الأمور في يد القوى المادية على إطلاقها، بينما التفسير الاقتصادي للتاريخ يختار المظهر الاقتصادي للقوى المادية ويجعل في يديه قياد الأمور.

البحث عنها في عقول الناس، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل ".

ولسنا هنا نناقش الآراء، وإنما نستعرض التاريخ [٣].

لقد مد هذا التفسير المادي للتاريخ في موجة التفسير المادي الحيواني للإنسان.

فليس يسعى الإنسن للحق والعدل الأزليين، وإنما يسعى إلى الطعام.

لا عقيدة ولا مبادئ ولا مثل ولا مشاعر.. وإنما حيوان يعيش في نطاق المعدة.. ويسيره البحث عن الطعام.

وإن سعى إلى الحق والعدل فلا فائدة.. فالناس محكومة بقوانين حتمية هي المادة والاقتصاد.

" ليس شعور الناس هو الذي يكيف وجودهم، وإنما وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم ".

لا يساوي شيئا أن يعتنق الناس فكرة أو يؤمنوا بعقيدة. كل ذلك باطل. كله أوهام. خيالات لا تسمن ولا تغني من جوع. لن يغير ذلك شيئا من " واقع الحياة ". الواقع الذي يحدده " أسلوب الإنتاج ".

الدين والأخلاق والتقاليد ليست قيمة ذاتية قائمة بذاتها، وإنما هي مجرد انعكاس للوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم في المجتمع. وفوق ذلك وأهم من ذلك أنها ليست ثابتة. فهي تتغير كلما تغيرت وسائل الإنتاج. بل فوق ذلك وأهم من ذلك أن الإنسان ذاته متغير. ليس ثمت كيان ثابت اسمه الإنسان. ليست هناك غرائز ولا دوافع فطرية. الإنسان هو انعكاس البيئة، ليس فقط في مفاهيمه وعقائده وعاداته، بل في كيانه النفسي الداخلي كذلك. كل جزء من نفسه قابل للتغير. علاقاته الفردية والاجتماعية والجنسية.. والملكية والزواج والأسرة.. كل شيء.. كل شيء يمكن أن يتغير. وليس لأي شيء مقياس يقاس به إلا درجة تكيفه مع بيئته.. ومن ثم فالمقياس الثابت غير موجود.

---

[٣] سنناقش هذه الآراء في الفصل القادم " حقائق وأباطيل ".

ولم تكن الموجة العنيفة التي أحدثتها نظرة دارون قد هدأت بعد، بل لم تكن قد بلغت آخر مداها حين ظهر " فرويد ".

ولد فرويد سنة ١٨٥٦.. أي بعد دارون بما يقرب من نصف قرن.

وبصرف النظر عن مدى إخلاصه لعلمه أو إخلاصه ليهوديته [٤] فقد تأثر تأثراً كبيراً بالنظرة الداروينية إلى الإنسان، وكان في الواقع امتدادا قويا لها في مجال الدراسة النفسية، وعلم النفس التحليلي.

جاء فرويد يفسر السلوك البشري على أساس حيوانية الإنسان المطلقة التي لا ظل فيها " لإنسانية " هذا الإنسان أو رفعته وتميزه. جاء يقول: إن " الجنس " بمعناه الحيواني الخالص، بمعناه الحسي الشهواني، بمعنى حركات الجسد ومشاعر الجسد، هو المحرك الأول والدافع الأصيل لكيان البشرية.

الجنس هو كل شيء وكل شيء نابع من الجنس.

الطفل يرضع ثدي أمه بلذة جنسية. ويتبول ويتبرز بلذة جنسية ويحرك عضلاته بلذة جنسية.. ويرتبط بأمه بشعور جنسي " كما ترتبط الطفلة الأنثى بأبيها بشعور جنسي " ويظل هذا الشعور الجنسي نحو الأم " أو الأب في حالة الأنثى " ينمو مع نمو الطفل حتى يحدث العقدة الأولى في حياته، عقدة أوديب (أو عقدة إلكترا عند الطفلة الأنثى) التي تنشأ من صراع الطفل بين هذا العشق الجنسي للأم وبين سيطرة الأب الجنسية على الأم " أو العكس في حالة الأنثى " وتظل هذه العقدة تعمل في نفس الطفل وتعذبه حتى يتخلص منها بطريقة ما.. يتخلص منها بطريق الكبت من جهة، والتلبس بشخصية الوالد من جهة ثانية.

وحين يكبت الطفل شعوره الجنسي نحو أمه، وحين يأخذ – في لا شعوره – مكان الوالد ويتلبس بشخصيته، يأخذ في النمو النفساني، ويبدأ يتولى بنفسه كبت مشاعره الداخلية، ويفرض على نفسه الأوامر والنواهي التي يمتصها من المجتمع المحيط به، ويتحكم تدريجياً في سلوكه. ويعبر فرويد عن ذلك بنشأة " الذات العليا " أو نشأة الضمير. ولكن هذه العملية فيما يقول فرويد عملية خطرة، حتى مع لزومها للنضوج النفساني للطفل [٥]

---

[٤] انظر بالتفصيل فصل فرويد " في كتاب الإنسان بين المادية والإسلام ".

[٥] قال في كتابه Three contributions to the sexual theory ص ٨٢: " وهكذا يحصل الإنسان على قوة نفسية كبيرة من استعداد نفسي هو في ذاته خطير ".

لأن الكبت الجنسي المصاحب لعقدة " أوديب " يحدث آثاراً ضارة في النفس الإنسانية، إذ هو يقف في طريق القوة الحيوية المتدفقة وينشئ لها السدود والقيود، فتؤدي إلى انحرافات نفسية وعقد مرضية واضطرابات عصبية، تدمر الكيان البشري في النهاية.

وهذا التفسير الجنسي للسلوك البشري ليس تفسيراً للسلوك الفردي وحده، وإنما هو كذلك محور الحياة الاجتماعية كلها منذ بدء التاريخ البشري حتى اليوم، يشمل الفرد والأسرة والقبيلة والعشيرة والجماعة والمجتمع كله، كما يشمل الدين والأخلاق والتقاليد والفن والفكر والفلسفة.. وكل نشاط البشرية.

كان دارون قد قال: إنه في عالم البقر تنطلق الثيران الفتية الشابة تريد أن تنزو على أمها فتمنعها سيطرة الأب المسيطر على القطيع. فتنشب معركة حامية بين تلك الثيران الفتية والأب الشيخ يتكتل فيها الأبناء كلهم ضد أبيهم حتى يقتلوه. ثم يقتتلون فيما بينهم، كل منهم يريد أن يستخلص الأم لنفسه، فيموت الضعاف في المعركة، أو ينعزلوا، ويبقى ثور واحد فتى يستولي على الأم ويصبح هو قائد القطيع.

وجاء فرويد ينقل عن دارون هذه القصة، ولكنه ينقلها من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان متأثرا كما قلنا بالنظرة الحيوانية للإنسان، وينزع القداسة التي كان يضفيها عليه من قبل تفرده وتميزه عن عالم الحيوان.

جاء يقول: إنه حدث في البشرية الأولى ما يحدث في عالم البقر. في عالم الحيوان.

أحس الأبناء برغبة جنسية نحو أمهم التي ولدتهم، ولكن سطوة الأب كانت تمنعهم من هذه الشهوة العنيفة. فتآمر الأولاد على قتل أبيهم ليتخلصوا من سطوته ويستأثروا بأمهم.. ونفذ الأولاد ما تآمروا عليه.

ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك حتى أحسوا بالندم، وتملكهم الشعور بالخطيئة، فصمموا على تقديس ذكرى أبيهم الذي قتلوه. وبذلك بدأت عبادة الأب.

ثم امتزج الأب في شعورهم ببعض أنواع الحيوان – تلك عملية نفسية يقول فرويد إنها طبيعية – فقدّسوا هذه الحيوانات ومنعوا قتلها، وذلك تكفيراً عن قتل أبيهم ورغبة في تقديس ذكراه. وبذلك نشأت الديانة الطوطمية.

ثم يقول فرويد: " وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها " إحساس الأبناء بالجريمة " وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها،

والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم " قتل الأب " الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة [٦] ".

هذا عن الدين.

أما الأخلاق فيقول عنها: " إن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية [٧] ".

وأما الحضارة في كتاب (The Ego & The Id) ص ٨٥ يتحدث عن: " التعارض القائم بين الحضارة وبين النمو الحر للطاقة الجنسية ".

وفي كتبه الأخرى كلها التي تضيق هذه الجولة السريعة عن استقصائها [٨] يروح يُرجع كل لون من ألوان النشاط البشري إلى أَصله الجنسي في نظره، ثم يشرح التعارض بين: التنظيمات الاجتماعية كلها، وبين ما يسميه " النمو الحر للطاقة الجنسية ".

ونحن هنا لا نناقش الآراء وإنما نستعرض التاريخ.

وقد فعلت هذه الموجة العاتية فعلها، وانتشرت كالنار في الهشيم.

انتشرت تحطم الدين والأخلاق والتقاليد، وتلوث كل تراث البشرية.

هذا هو الإنسان – كما يرسمه فرويد – عريان.. عريان من كل خلق ومن كل دين ومن كل شعور نظيف. والملابس التي تخفي عوراته الحسية وعوراته النفسية والنعوية، كلها ستار زائف لا يمثل حقيقة ولا قيمة من القيم الجديرة بالاعتبار.. إنها كبت. إنها باطل. إنها عوائق تعوق " النمو الحر للطاقة الجنسية " إنها أغلال... والحقيقة الوحيدة الجديرة بالاعتبار، الحقيقة الوحيدة التي كل ما عداها زائف وباطل ينبغي أن يزول.. هذه الحقيقة هي الجنس. هي الحيوان العريان.

---

[٦] كتاب " Totem and Taboo " ص ١٥٤.
[٧] كتاب " The Ego and the Id " ص ٨٠.
[٨] انظر بالتفصيل كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام ".

وقد حدث شيء شبيه بما حدث مع دارون من قبل... فقد وقفت الجماهير أول الأمر موقف الخصومة من فرويد، وهاجمته في عنف... وقفت – إلى حد ما – في صف عقيدتها الدينية " التقليدية " التي لم تكن بعيدة الغور في واقع الأمر، ولا كانت عقيدة واعية... ووقفت في صف أخلاقها التقليدية كذلك التي لم تكن في الحقيقة عقيدة يؤمن بها الناس عن اقتناع ووعي. ووقفت بشدة في صف الصورة " الإنسانية " التي تتصورها عن نفسها، وتعتز بها أيما اعتزاز، والتي جاء فرويد ليجرحها ويلوثها، ويضفي عليها قذارة الحيوان.

ولكن موقف الجماهير بعد ذلك تغير.

لقد تلقف الشباب خاصة تعاليم فرويد وتشبثوا بها تشبثاً، وراحوا يوسعون رقعتها في كل اتجاه.

كانت هذه التعاليم إنقاذا لهم من تزمت التقاليد الدينية التي كانت سائدة من قبل... وصحيح أن هذه التقاليد لم تكن مرعية كل الرعاية، ولكن ذلك لا يخفف من وقعها على النفس. فليس المهم في مثل هذه الحالة – كما قال فرويد صادقاً – أن ينفذ الإنسان تعاليم الدين في سلوكه الواقعي أو لا ينفذها، وإنما المهم هو مدى إحساسه بها في لا شعوره، ومدى ما توحي له بأن الأمر الذي يقدم عليه خطأ أو صواب.

وقد كانت التقاليد الدينية السائدة من قبل في أوربا عنيفة متزمتة، تنظر إلى الجنس على أنه قذارة دنسة لا يجوز أن يلم بها القلب النظيف، وتحرم الحديث عنه، أو القرب منه، أو لمسه ولو من بعيد، على من يريد التطهر والارتفاع. ومن ثم وجد الشباب – الذي تشغل المشكلة الجنسية جانباً كبيراً من شعوره وتفكيره – وجد في تعاليم فرويد متنفساً له ومنطلقاً، وسنداً قوياً يسنده وهو يقاوم ضغط الدين والأخلاق والتقاليد. سنداً يمحو عنه وصمة " الخطيئة " التي يواجه بها المجتمع وتواجهه بها نفسه من الداخل. وتعطيه بدلا منها شعاراً آخر جذاباً مغرياً: شعار الجرأة والتحرر والانطلاق والكفاح.

كما وجدت الجماهير، من الشباب وغير الشباب، فرصة جديدة سانحة لهدم جانب من بقايا البناء الذي كان شامخاً من قبل فأصبح اليوم يهتز ويتأرجح، بناء " الكنيسة " المسيطرة المتحكمة.. فرصة للانعتاق من الغول الذي كان يتهددهم من قبل، والذي يحسون في دخيلة أنفسهم بالفرحة الشامتة كلما أثخنته الجراح. ولتذهب في سبيل الشيطان دعوى الإنسانية، إن كان سيصحبها التضييق والقيد. ولتكن " الحيوانية " هي الشعار البشري إن كان سيصحبها التفلت من القيود.

وسمى هذا بأنه الفهم الواقعي " للطبيعة البشرية ".

* * *

ولم يقتصر تأثير فرويد على ميدان البحوث النفسية والعيادات السيكولوجية، كما لم يقتصر تأثير دارون من قبل على أبحاث علم الحياة. ذلك أن كلا منهما في الواقع قد جاوز دائرة " العلم والبحث " أعطى تصويراً معيناً " للإنسان " قائما على أساس حيوانية الإنسان وماديته.

وكما انعكست الأفكار الداروينية ونظرية التطور على الدين والأخلاق والتقاليد، فكذلك انعكست أفكار فرويد الجنسية على الدوائر ذاتها، بل كانت أشد تأثيرا فيها وتغلغلا في شعابها لأنها تمس الأخلاق والتقاليد مساً مباشراً، بل تسعى إلى تقليعها من الجذور.

لقد ظهرت على إثر فرويد مذاهب في الفن والأدب والتفكير مذاهب تسعى كلها إلى عرض الجنس على أنه محور الحياة البشرية وعنصرها الأوحد، كما تسعى إلى تصوير قيود الأخلاق والتقاليد على أنها سخف لا ينبغي للبشرية أن تزاوله، أو رياء لا يؤمن به أحد في دخيلة نفسه. من ثم ينبغي العدول عنه إلى صراحة الواقع. إلى صراحة الحيوان العريان.

وظهرت قصص ومسرحيات وأشعار وصور وموسيقى وصحافة مجندة كلها للجنس. مجندة لإبرازه، وتجسيمه، وتسليط الأنوار عليه، وكسف الأستار عنه، وإزالة الخجل منه، والحث على ممارسته علانية وفي وضح النور..

وممارسة الجنس في غير حدوده " الشرعية " التي رسمتها الأديان ليس أمراً جديداً على البشرية، فقد وجد منذ وجدت الجماعة الإنسانية. ولكن الذي جد على إثر فرويد، هو الدعوة إلى العلنية التي لا تخجل والحيوانية التي لا تستتر، وإضفاء صفة " الشرعية " على ما لم يكن شرعياً من قبل، وكان يأتيه على حذر وفي خفية عن العيون.

وتخصص أدباء من أمثال " د. هـ. لورنس " في الكتابة عن الجنس، وتلذيذ القارئ به، وشغل انتباهه بدقائقه، واستغلال البراعة الفنية الفائقة في الدعوة لقضية الجسد، وتصوير الحيوان الداخل في كيان الإنسان على أنه هو الإنسان الحق. هو وحده وكل ما عداه أباطيل.

هذا في الأدب " الجاد ".. أما الأدب " الجنسي " البحت، الأدب الذي كان كل همه وصف لحظة الفراش بالتفصيل والإعادة والتفصيل والإعادة.. فقد انتشر في أرجاء العالم كله بشكل عنيف لا مثيل له من قبل في الكثرة والانتشار، وساعد على ذلك نمو الطباعة وإمكانياتها المتزايدة.

وتخصصت صحافة كاملة في الدعوة لشئون الجنس، وتفصيصها، وبلورتها، ومعالجتها من شتى الجوانب. من جانب الدين وتعرضه السخيف مع " الواقع " البشري مرة. ومن جانب التقاليد السخيفة التي تقف في طريق " النمو الحر للطاقة الجنسية " مرة. ومن جانب الأخلاق وتدخلها فيما لا ينبغي التدخل فيه من حرية الإحساس والعمل مرة. ومن جانب قصص الجنس المثيرة مرة. ومن جانب الصور العارية مرة. ومن جانب النكت الجنسية مرة. ومن جانب عرض المشاكل العاطفية والمشاكل الاجتماعية مرة، ومن كل جانب يمكن أن يتدسس إليه شخص يريد أن يمزق " الملابس " الحسية والمعنوية التي يداري بها الإنسان سوءاته، ويعرضه في وضح النهار عريان.

وتخصصت موسيقى كاملة في إثارة الجنس والتعبير عنه بشتى صنوف التعبير، وحدها أو بمصاحبة الغناء والرقص. تعبر عنه صخباً نازياً كألحان الجاز، أو اندفاعاً فارهاً كبعض ألحان الرقص، أو تموجات حسية ظاهرة كبعضها الآخر.

وهذا كله في المسارح " الراقية " والأندية " النظيفة ". أما مسارح الجنس البحت وأندية الحيوانية البحتة فألوان من الغناء والرقص والموسيقى لا تحتاج إلى تصوير.

وتخصصت فنون " لدراسة " الجسد.. لا على الطريقة اليونانية القديمة التي كانت مع تحللها ووثنيتها تبحث عن الجمال " في الجسم " وإنما على طريقة " فرويد ".. الطريقة التي تعرض الجنس في الجسد وتكشفه للعيون عريان، لأنه الحقيقة في الإنسان.

*　　*　　*

وفوق ذلك كله جاءت السينما.. فكانت كالضربة القاصمة.

لقد كانت السينما منذ مولدها فن " الجماهير ". الجماهير التي لا تقرأ الأدب ولا تجد نقود المسرح ولا تتاح لها فرصة الرقص بمصاحبة الغناء والموسيقى ولا تجد فرصة التردد على المراسم ومشاهدة " اللوحات ".. هذه الجماهير تفهم السينما وتذهب إليها في شغف مجنون.

وقد جاء المولد العلمي للسينما والفيلم في عصر " فرويد ". فولدت ملوثة بالجنس. ومع ذلك فقد تدرجت – ككل شيء – من أفلام تحمل فكرة وقليلا من الجنس، إلى أفلام معظمها يحمل الجنس وقليلا من الفكرة، إلى أفلام لا تحمل إلا الجنس – كأفلام الاستعراض.

وكانت السينما – بإمكانياتها الفنية الفذة – فتنة للجماهير. فهي في الواقع مجموعة من الفنون متناسقة متساوقة.. فن القصة وفن المسرح وفن التصوير وفن الموسيقى وفن الغناء كلها مجتمعة، بجانب الإمكانيات العلمية التي تجعل الشريط الناطق المصور – المجسم حديثاً – أشبه شيء في مظهره بواقع الحياة.

ومن ثم كان أثر السينما في حل الأخلاق والتقاليد أعنف من كل ما سبقها من صحافة وإذاعة وفنون.. لأنها تحمل " الواقع " الجنسي المجسم، وتعرضه بصورة خلابة سريعة العدوى شديدة التأثير.

فإذا أضيفت السينما الجنسية إلى المسرح الجنسي، إلى القصة الجنسية، إلى الموسيقى الجنسية، إلى الصحافة العارية، إلى " الأفكار " العارية، إلى الدعوات الجاهرة لتحطيم الدين والأخلاق والتقاليد.. فقد نشأت أجيال لا تؤمن في نفسها بحقيقة غير حقيقة الجنس، ولا ترى غضاضة في تعرية الحيوان الكامن في الإنسان، تعرية حسية ومعنوية، تعرية في المشاعر والسلوك، تعرية في البيت وفي الشارع، تعرية في اللفظ وفي الحركة، في المشية والجلسة والنظرة.. حيوان عريان.

* * *

وقبيل ذلك، وفي أثنائه، وفيما بعده، كانت الثورة الصناعية في أوربا تعمل عملها في هدم الأخلاق والتقاليد.

تحدَّد الثورة الصناعية في إنجلترا – تاريخيا – بالفترة ما بين ١٧٦٠، ١٨٣٠ ولكن هذا مجرد تحديد " اصطلاحي " يدل على التحول من الآلة اليدوية إلى الآلة البخارية. أما الحركة الاجتماعية والحركة النفسية اللتان أحدثتهما الثورة الصناعية، فلم تقفا بطبيعة الحال عند سنة ١٨٣٠، بل الأحرى أن تكونا عندئذ قد بدأتا في الاشتداد!

وفي بقية أوربا بدأت الثورة الصناعية متأخرة عن ذلك العهد، وظلت تنشر أمواجها المتلاحقة في بلد إثر آخر، متشابهة في المظهر، حتى خيل للناس أنها ظاهرة عامة، متساوقة متوافقة، وصدقوا لذلك ما يقوله التفسير المادي للتاريخ!

كانت أوربا في العصور الوسطى تعيش في ظل الإقطاع. وظل هذا الإقطاع مخيما مع الظلام الذي اكتنف أوربا كلها في العصور المظلمة، حتى بدأت تفيق في عصر النهضة وحركة الإحياء.

وبدأ الإقطاع يتحطم حين قامت ثورة الفلاحين الأرقاء، وأخذوا يهربون من الأرض التي كانوا مقيدين إليها، لا يملكون مبارحتها، ولا يملكون حريتهم فيها، ولا يملكون سمة واحدة من سمات الآدمية الراقية أو غير الراقية. فقد كان العبيد والحيوانات سواء. أو ربما أكرم الحيوان – لكي يعيش ويعمل – دون أن يكرم العبيد!

ولكن وجه الحياة في أوربا لم يتغير تغيراً حاسماً إلا حين تحولت إلى الصناعة.

فمن قبل اضطر الملاك – إزاء ثورة الفلاحين – أن يطلقوهم من عبوديتهم، ولكنهم ظلوا مع ذلك يعملون في الأرض وظلت حياتهم دون تغير كبير.. لأنهم – في الواقع – لم يغيروا من أنفسهم إلا القليل. تغير " مظهر " الرق، وظلت حقيقته في داخل النفوس.

أما حين نشأت الصناعة فقد تغير الوضع من أساسه.. على الأقل في ظاهر الأمور(٩)!

نشأت الصناعة في المدينة، واحتاجت إلى العمال.. ولم يكن في المدينة أصلا ما يغذي حاجة الصناعة الناشئة، فكان لا بد أن " تستورد " حاجتها من الريف.

وجاء الريفي المنتزع من الأرض، المنتزع في الوقت ذاته من ربقة الإقطاع. جاء يضع رجله في المدينة آمنا من سوط " السيد " آمنا من أغلال التبعية، وعناء الكد بلا ثمرة، والجهد بلا مال.

وأحس – لفترة من الوقت على الأقل – بطعم الحرية ولذة الانعتاق (١٠)!

---

(٩) تقول الشيوعية إن العبودية في الواقع قد انتقلت من عبودية للأرض إلى عبودية لرأس المال ولكنها لم تتحرر.

وقام في حسه فارق حاسم بين عالم الريف وعالم المدينة.

عالم الريف هو الذل والتبعية والعبودية. وعالم المدينة هو التحرر من الأغلال.

ولم يكن في نفوس العمال ضابط " منطقي " يقول لهم: إن في حياة الريف " معاني " جميلة يحسن أن يأخذوها معهم، أو " عقائد " سامية تصلح لهم في المدينة، أو " روابط بشرية " لا يحسن أن يتركوها وهم يتركون القرية، أو يلقوها وراء ظهورهم وهم يلقون الرق والعبودية والانعدام الذليل.

كلا! لم يكن في نفوسهم هذا الضابط " المنطقي " يفرز لهم ما يصلح وما لا يصلح. وإنما كانت حركة واجدانية منفعلة تطلب الانعتاق. كل همها أن تلقي كل شيء وراءها وتحطم كل شيء.. لتحس بمولد حياة جديدة

وهب أنها احتكمت إلى المنطق، وأمسكت بالميزان.. فماذا كان قد بقي لديها من الخير الحق تحافظ عليه وتنافح دونه، وهي هناك أذل من السائمة وأدنأ من الحيوان؟

كلا! فلتذهب القرية إلى الجحيم.. وليحيا العمال في المدينة منعتقين من القيود.. كل القيود!

هذه واحدة.. أو هذه هي الأساس.

وجاء العمال فرادى.. من قرى متفرقة. وحتى لو كانوا من قرية واحدة فهم أشتات لا يربطهم عمل واحد ولا سكن واحد ولا شاغل مشترك.. حتى الآن.

في الريف كانوا متعارفين، وكانوا ذوي قربى حقيقية، هي قرابة الدم أو قرابة النسب.. أو في الأقل قرابة المعرفة والجوار.

ولكنهم في المدينة أشتات. لا أقرباء ولا متعارفون.

وأحس كل فرد منهم أن الروابط التي كانت تربطه من قبل قد انقطعت فجأة. والتقاليد التي كان يخضع لها في القرية ويحافظ عليها – لا عقيدة في الغالب، وإنما خجلا

(١٠) لم يدم هذا الإحساس طويلا، فسرعان ما وجد العمال أنهم وقعوا فريسة لغول أبشع من غول الأرض. ومع ذلك فإن نزعة الصراع والرغبة في التحرر كانت تسري في دمائهم، وهذه النزعة هي التي أثرت في تغيير الأوضاع.

من الآخرين - هذه التقاليد لم يعد لها مبرر. فمنذا الذي هنا يعرفه؟ أو يهتم بأمره؟ أو يحاسبه على مخالفة التقاليد؟

فلينفلت.. فليس ها هنا حساب!

وهذه واحدة..

وجاء العمال وحدهم - في أول الأمر - بلا أسرة ولا أزواج.

لم تكن الأحوال المعيشية في المدينة مأمونة حتى هذه اللحظة بحيث يأخذ العامل أسرته ويترح بها إلى المدينة. فهي تجربة جديدة محفوفة بالمخاطر، قد تفلح وقد تخفق. فالأجدر أن يسافر العامل وحده، ولتتبعه أسرته حين تستقر الأمور.

وحده - في الغالب - في سن الشباب. فما كان يطيق العمل في المصانع أول الأمر إلا الأشداء، وما كان أصحاب المصانع يقبلون إلا الأشداء.

وحده - في سن الشباب - بلا حواجز. فالخلق والدين و " الضمير " والتقالي تركها في القرية يوم انفلت منها إلى المدينة. وفي المدينة لم يجد ذلك الرادع الموجود في الريف: رادع الحياء من الآخرين.

وحده - في سن الشباب - بلا حواجز - وحوله المغريات.

ففي المدينة - منذ القدم - يوجد البغاء. مستترا حينا، ومنكشفاً حينا. ولكنه دائما هناك.

وانطلق الشباب - في فترة تعطله الجنسي بعيدا عن الأسرة - ينغمسون في مقاذر الشهوات.

وأحس العمال في أول الأمر أنها ضرورة.. ثم أصبحت عادة.

وحين اطمأنوا إلى حياتهم بعد ذلك، وأرسلوا إلى أسرهم لتلحق بهم في المدينة، أو أنشأوا لهم أسرا جديدة في الموطن الجديد، لم يقض ذلك على الضرورة التي كانت من قبل، بل ظلت قائمة للأجيال الدجيدية التي رأت فيها طريقة سهلة للتخلص من وطأة الجنس بغير تبعات.

وأصبح البغاء، بصوره المختلفة، من أول " الصداقة " الفردية إلى بيع الجسد لكل راغب.. أصبح هو التقاليد الجديدة في المدينة. التقاليد التي تبذل لها الرعاية ويحميها القانون.

وسمى هذا بأنه التطور الذي يتمشى مع الواقع ولا يعيش في الخيال.

* * *

و لم يقف تأثير الثورة الصناعية في تفكيك الروابط وحل الأخلاق عند هذا الحد..

فقد بدأ العمال – الذين ابتهجوا من قبل بمقدمهم إلى المدينة – يثورون عى أصحاب المصانع الذين يستغلونهم أبشع استغلال، فيشغلونهم في العمل المرهق عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة ساعة أحيانا، بأجور ضئيلة لا تكفي للحياة الكريمة، ولا تفي بما على العامل من تبعات.

عند ذلك لجأ أصحاب المصانع إلى مكايدة العمال بتشغيل النساء. نفس ساعات العمل بأجور أقل.

وأحد تشغيل النساء حدثين عظيمين في الحياة الأوربية.

فأولا: فك رباط الأسرة الذي كانت من قبل تمسكه المرأة، الزوجة والأم، وتضفي عليه من وجودها وأنوثتها وحيويتها وعاطفتها ما يجمع خيوطه ويعطيه صفة الكيان الحي. فالمرأة العاملة – وفي تلك الظروف البشعة التي تأخذ كل الوقت الحي وكل الجهد الحي – لم تكن تستطيع أن تمنح بيتها شيئا من الرعاية، ولو أرادت ذلك وحنت إليه.

وثانيا: أفسد أخلاق المرأة لعوامل كثيرة.

فالنظام الأوربي لم يكن من قبل يمنح المرأة اعتبارا أو يعطيها حقوقا " مدنية " أو اقتصادية.

لم يكن لها أن تملك. و لم يكن لها أن تتعلم. و لم يكن لها أن تبدي رأيا، أو تشارك في أمر. كانت هملا تابعا للرجل. تبعية منشؤها الحاجة إلى المأكل، والملبس، والمسكن، والجنس. تبعية لا مشاركة. تبعية لا تحفل بالمشاعر الإنسانية ولا تقيم اعتبارا لكيان

الآدميين. وفي ظل هذه التبعية كانت تلتزم " بالفضائل " التي يفرضها المجتمع – أي الرجل – لا عن عقيدة حية واعية في الغالب وإنما عن تقليد.

فلما اشتغلت المرأة وصارت تكسب، أحست أن الحاجز قد انهار.

أي شيء للرجل عندها اليوم؟

وبأي شيء يستعبدها؟

بالحاجة إلى المال؟ إنها تكسب عيشها بنفسها، وتتخلص من التبعية.

الحاجة إلى الجنس؟ نعم.. ولكنها ستأخذها بنفسها. ستمنح نفسها باختيارها لمن تريد.

وكذلك تصاحب في حسها التحرر الاقتصادي و " التحرر " الجنسي، أي الانفلات من قيود الدين والأخلاق والتقاليد، وأحست – في نشوتها بالتحرر الأول – أن التحلل الجنسي نصر كذلك جديد.

وسمى هذا بأنه " التطور " الذي حرر المرأة من الأغلال.

* * *

ومضت الثورة الصناعية تحطم ما صادفها في الطريق..

ولم تكن الظروف التي وصفناها فيما سبق هي وحدها التي أثرت في بنية المجتمع وأحدثت ذلك التغيير.

فقد أحدثت مظالم العمال تطورات سياسية كثيرة. وكذلك نشوء طبقة متوسطة من موظفي المصانع والحكومة تعيش في المدينة وتشعر بالمظالم وتتحفز للسلطان.

هذه الطائفة وتلك – بحكم وضعها وظروفها – تنفر من الأغلال وتطلب التحطيم.

تريد أن تحطم السيطرة الواقعة عليها، سواء من الدولة أو من أصحاب المصانع والممولين.

تريد أن تظفر بحقوق جديدة. بتحرر بعد تحرر. بكيان جديد.

لقد كانت تحس أن عليها التبعات جميعاً - تبعات العمل - دون أن يكون لها مقابل من الحقوق. فليس منها واحد يتولى مقاعد الحكم التي كانت مقصورة على طبقة النبلاء ومن ورثهم من الرأسماليين. وليس لها صوت في البرلمان الذي يشرع، بل ليس لها حق الاقتراع في كثير من الأحيان. كما لم يكن لها حق تكوين النقابات والاتحادات التي تعبر بها عن مصالحها، وتتقوى بها في وجه من فوقها من الطبقات. ولم تكن تكفل لها - في جميع الحالات - حرية الاجتماع وحرية الخطابة وحرية التعبير عن رأيها وحرية الإضراب. ولا كانت تكفل لها حين تتعقبها السلطة التنفيذية ضمانات الاتهام وضمانات التحقيق وضمانات المحاكمة وضمانات التنفيذ..

لذلك كان صراعهم عنيفاً لاستخلاص هذه الحقوق.

وفي وسط هذا الصراع الدموي - أو الشبيه بالدموي - لا يوجد الضابط المنطقي الذي يقول: أنا أتحرر من الظلم. أتحرر من السيطرة الطاغية للسيد أو الدولة.ولكني سأبقى على القيود اللازمة للبشرية، التي يصبح الإنسان بدونها كالحيوان. سأبقى على العقيدة. سأبقى على الأخلاق. سأبقى على التقاليد. لأنها ليست جزءاً من الصراع مع الدولة ولا أصحاب المصانع ورءوس الأموال. أنا ثائر على الظلم ولست ثائراً على الإنسانية.

كلا! لا يوجد هذا الضابط المنطقي في حلبة الصراع الذي كان قائماً على لقمة العيش وعلى قيم أرضية بحتة لا صلة لها بالمثل والأخلاق.

وأهم من ذلك - من وجهة النظر التي نحن بصددها في هذا الفصل - أن محور هذا الصراع الذي يتطلع إلى التحرر، ومحور الفلسفة الرأسمالية كلها في ذلك العصر كان " تحرر الفرد " من السيطرة، وحقه في أن يصنع ما يشاء بغير تحريج.

كان الرأسماليون ينادون بحقهم في استغلال رءوس أموالهم فيما يرون - هم - أنه الصالح وأنه الصواب. وكلمتهم المشهورة " Laissez Faire " دعه يعمل، أو دعه يصنع (ما يشاء) تعبر عن اتجاههم كله. وكان الشعب ينادي بحقه في التصرف كما يشاء، وحقه

في أن يرى من الآراء ما يشاء ويسلك الطريق التي يراها للتعبير عن هذا الرأي دون أن يكون لأحد حق التحريج عليه أو منعه مما يريد.

ومن ثم نادى " المفكرون - فيما نادوا به - بحرية الإلحاد، وحرية عدم التخلق بخلق، وحرية تحطيم التقاليد.

ومضى التحرر السياسي في طريقة يصحبه التحرر الكامل من القيود، ينفخ فيه في الوقت ذاته دعاء " دارون " و " فرويد "، والتفسير المادي للتاريخ.

وسمى هذا بأنه المولد الجديد للحضارة الأوربية.

* * *

وكانت الأمور كذلك حين قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤.

كانت الحرب هزة عنيفة أصابت العالم كله بما يشبه الدوار، وأحدثت فيه تقلبات صاعدة وهابطة، غيرت كثيراً من القيم وكثيراً من المفاهيم.

ومع ذلك فإن الذي يستعرض هذه الفترة، وما قبلها، وما بعدها، يجد أن الحرب لم تصنع أكثر من تجميع القوى المتطورة وتضخيمها بحيث تبدو لمن ينظر إليها فجأة كأنها قوى جديدة لم تكن في الميدان.

كان من أفظع نتائج الحرب وأكبرها خطراً قتل ما يقدر على الأقل بعشرة ملايين شاب من أوربا وأمريكا في ميدان القتال، غير من قتلتهم الغارات الجوية في المدن من الرجال والنساء والأطفال.

ونتج من ذلك مجموعة من النتائج الخطيرة..

فإن ملايين من الأسر قد وجدت نفسها في نهاية الحرب بلا عائل.. إما لأن عائلها قد قتل في الحرب، أو شوه بدرجة تعجزه عن العمل، أو فقد عقله أو أعصابه بفعل الحياة الدائمة في الخنادق والغازات السامة، والغارات المدمرة، والتوقع الدائم للهلاك.

هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى فإن الذين خرجوا من الشباب قادرين على العمل لم يكونوا كلهم على استعداد لأن يتزوجوا ويكفلوا أسرة. فإن حياة الحرمان الشنيعة التي عاشوها أربع سنوات كاملة في أثناء الحرب، لم تترك في نفوسهم فسحة لتحمل التبعات والكدح في سبيل الآخرين. لقد خرجوا منهومين يريدون الاستمتاع بالحياة. يريدون النساء والخمر والمباهج. يريدون أن يطفئوا السعار الملهوف. فلا بأس بالمرأة صديقة تستجيب للرغبة اللاهفة، أو جسدا يشترى بالنقود. ولكن لا مرحبا بها زوجة وأم ولد تتمثل فيها القيود والمتاعب والتبعات.

ومن ناحية ثانية فإن الدمار الفظيع الذي أحدثته الحرب كان يستلزم طاقة إنتاجية هائلة للتعويض، ولم يكن من تبقى من الرجال كافياً لحركة التعمير الشاملة المطلوبة في كل مكان.

والتقى الأمران على شيء واحد: يجب على المرأة أن تعمل في السوق وفي المصنع والمنجم، في كل مكان يمكن أن تعمل.. وإلا هلكت جوعاً هي ومن تعول.

واضطرت المرأة – كارهة أو راضية – أن تترك حياة المترل المستقرة نوعاً، وتترل إلى المعترك الصاخب الذي لا يرحم ولا يجير.

واضطرت كذلك – كارهة أو راضية – أن تتنازل عن أخلاقها إذا أرادت أن تعيش.

لقد كانت – في غير الأعمال النسوية بطبيعتها كالتديس والتمريض والتوليد.. – تلتقي برجال قد صبغتهم الحرب بصبغتها.. صبغة الرغبة في المتاع السهل القريب. فإن لم تبذل نفسها وأرادت أن تحتفظ بأخلاقها، فأمامها أبواب موصدة وكل شيء عسير. وإن رضيت واستجابت فأبواب مفتوحة وكل شيء يسير..

على أنه لم يكن من الضروري أن يكون الأمر كذلك في كل حالة.. لم يكن من الضروري أن تُكره المرأة على بذل أخلاقها لتحصل على عمل. وإنما هي ذاتها كانت مدفوعة بعامل آخر.

لم تكن جوعة الطعام وحدها هي التي تواجهها ولا جوعة الزينة وجوعة اللباس.

بل كانت تواجه كذلك جوعة الجنس.

إن الملايين العشرة الذين قتلوا من الشباب قد أحدثوا اختلالا شنيعاً في نسبة النساء إلى الرجال، ففي مقابلهم وجدت ملايين من الفتيات لا يستطعن أن يجدن زوجا ولو تزوج كل من بقي حيا من الرجال، لأنه لا مقابل لهن من حيث العدد، ولا نظام يسمح لمن يريد من الرجال أن يتزوج، زواجاً شرعياً، بأكثر من واحدة، وإن كان هذا النظام ذاته – وبصفة رسمية – يسمح بمعاشرة أكثر من واحدة معاشرة غير " شرعية " ما دامت غير قاصر و لم يقع عليها إكراه!

فكيف تجد كل فتاة حاجتها الجنسية الطبيعية الشرعية النظيفة؟

وما لم تكن هذه الفتاة قديسة أو ملاكا فأي شيء تصنع؟ إلا أن تأخذ نصيبها من الجنس في علاقة غير شرعية – وإن كانت قانونية – أو خلسة منتهبة في الظلام؟ فإذا وقفت التقاليد في طريقها كانت التقاليد في نظرها هي التي ينبغي أن تحطم، وهي التي ينبغي أن تزول.

*　　*　　*

وانتهزت المصانع والشركات فرصة الحاجة الملحة التي تعانيها المرأة فشغلت النساء بأجور أقل من أجور الرجال، وإن كن يقمن بنفس العمل ونفس القدر من الساعات.

وكانت خسة لا يبررها منطق ولا عدالة ولا ضمير. ومع ذلك فقد وجدت واستمرت كأنها الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون.

وأصبحت للمرأة قضية.. قضية المساواة في الأجور [١١].

كان هذا الوضع بالنسبة للمرأة قديماً، منذ الثورة الصناعية. ولكنه كان في نطاق أضيق، أشبه بأن يكون حالات فردية. أما اليوم وقد اشتغلت النساء بالجملة فقد أصبحت قضية عامة ومعركة حامية الأوار.

---

[١١] هذه القضية بكل مطالبها وكل صراعاتها قديمة بدأت مع الثورة الصناعية.. ولكنها زادت حدة في سنوات الحرب وما بعدها.

لقد استخدمت المرأة في كفاحها كل سلاح المعركة. الاحتجاج والاضطراب والتظاهر والتهديد والوعيد.

ومع ذلك لم تظفر بنتيجة، أو ظفرت بنتائج جزئية لا تحقق الأهداف.

وبدا للمرأة أنها طالما بقيت بعيدة عن مصدر التشريع فلا فائدة ترجى من وراء الصياح.

لا بد أن يكون لها صوت مسموع في البرلمان.. إما أن تدخل بنفسها أو يكون لها على الأقل حق التصويت.

وقامت تطالب بهذا وذاك.

وعندئذ تغير وضع القضية، ولم يعد مجرد المساواة في الأجور.

كان الصراع من قبل على الدراهم.. واليوم على الأساس.

لقد وقف الرجل في الطريق يقول هذا حقي وليس حق المرأة. أنا السلطة التشريعية. أنا الذي أشرع وأحكم. أنا الذي أصوغ القوانين للمجتمع وأنا الذي أنظم الحياة.

وقامت المرأة – التي لم تكن تطلب غير المساواة في الأجر في مبدأ الأمر – قامت تقول نحن سيان في الخليقة. نحن سيان في الكيان. نحن سيان في الحقوق وسيان في الواجبات. نحن والرجل سواء. لا يفضلنا بشيء ولا مزية له علينا ولا اعتبار.

وكان صراع مستطيل مرير. لم يقف الآن عند المساواة في الأجر أو المساواة في التصويت أو المساواة في دخول البرلمان أو المساواة في الوظائف.. الخ. وإنما صار المطلب هو المساواة الكاملة المطلقة في جميع الشئون بغير استثناء.

ووقف الرجل بكل عنجهيته الفارغة والملآنة.. وتحصن – الآن – بالدين والأخلاق والتقاليد.

قال: إن الدين وضع الرجل في مرتبة أعلى من المرأة وجعلها تابعة له.

وقال: إن الأخلاق والتقاليد تقضي بأن تكون المرأة للبيت والزواج والأسرة، وليست للعمل والمزاحمة على الأرزاق.

وراحت المرأة تلعن الأخلاق والتقاليد وتتحلل من قضية الدين.

ومضت في إصرار ودأب تطرق كل ميدان وتلح في طرقة إلى أن يستجيب.

طالبت بالتعليم على نظام الأولاد، ثم بالتعليم المشترك مع الأولاد.

وطالبت بدخول الجامعات، ثم دخول كل كلية كانت محظورة على الفتيات.

وطالبت بالوظائف من كل نوع، وسار طلبها منطقيا بعد أن تلقت نفس التعليم الذي يتلقاه الفتيان.

ثم طالبت بحرية التحرر من الأخلاق كما يصنع الرجال. وكان طلبها منطقيا ما دام المجتمع يسمح للرجال بالانحلال.

وإذا كانت - فيما لا تملك من الأمور - تنتظر موافقة الرجل، فقد كانت فيما تملك من نفسها لا تنتظر موافقة أحد من الرجال.

ومن ثم خرجت تتهتك في الطريق، وتطلب بنفسها متعة الجنس، وتعطي نفسها لمن تشاء وتقضي معه مطالب فرويد.. مطالب الحيوان.

وثار الرجل في بداية الأمر ثورة عنيفة.. ثار لكرامته الجريحة وامتيازه الموروث.

ولكنه لم يلبث أن استجاب.

لقد حسب حسبة فوجدها صفقة رابحة..

الزوجة التي تعمل تخفف عن كاهله نفقات الحياة. ودخلان أفضل من دخل. ومهما احتجزت المرأة لنفسها وزينتها فستشاركه في جزء من نفقات المترل. وذلك كسب يزيح عن قلبه شيئاً من الأعباء.

ومن جهة أخرى فإن خروج المرأة إلى الطريق سهلة الوجود، وسهلة التناول، مسألة شيقة. فحيثما وُجد يقع عليها نظره، يستمتع بما يراه من حسن وما يراه من

مغريات. وحيثما أرادها فهي قريبة بحكم زمالة العمل، أو زمالة الدراسة، أو زمالة الطريق.. وهي أقرب بزمالة التحلل من الأخلاق والتحلل من القيود. ومن ثم فهي هكذا جميلة.. والحياة مشرقة. والمتاع ممكن.. وأقصى المتاع ليس بالمستحيل.

ووافق الرجل على الصفقة الرابحة. وكف عن الثورة للكرامة الجريحة والامتياز الموروث. بل أصبح هو الداعية للتحرر، والمطالب بإعطاء المرأة ما لها من الحقوق.

وسمى هذا بأنه عصر تحرر المرأة ورفعها إلى مستوى الإنسانية.

* * *

و لم يكن ذلك هو المجال الوحيد الذي أثرت فيه الحرب، وقلبت القيم والمفاهيم، أو – في الواقع – ضخمت ما كان موجوداً من قبل، وأعطته مجالاً للانطلاق.

فقد كانت النزعة المادية عريقة في أوربا، تغشيها قشرة رقيقة من المسيحية، تكمن في الوجدان وتلون بعض التصورات، وإن كانت لا تتحكم كثيراً في واقع الحياة.

وظلت المادية تزداد تأصلا، والقشرة المسيحية تزداد رقة مع النظريات المتوالية التي نشأت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وخاصة نظريات " دارون " و " فرويد" والتفسير المادي للتاريخ. ثم كانت فترة الحرب وما بعدها فترة تطاحن مجنون على الغلبة في الأرض. تطاحن على زيادة الإنتاج المادي، وتطاحن على استغلال القوى البشرية، وتطاحن على إزالة الدول بعضها لبعض.

صراع رهيب في عالم المادة، لا يتصل بمبدأ ولا يستمع لحظة لنداء رفيع..

وفي الوقت ذاته زادت الفتنة بالعلم. ففي أثناء الحرب جندت الكفايات العلمية كلها لاستنباط مهلكات جديدة. وجندت بعد ذلك لاستنباط وسائل التعمير من الخراب الشامل، ووسائل الغلبة في ميدان الإنتاج.

وحدث تقدم باهر في ميدان العلم وعالم المخترعات.

تقدم أفقد العقول توازنها فوقفت مذهولة إزاء المارد الجديد.

ومن قبل، من أيام " كوبرنيكوس " و " جاليليو " ثم " دارون " وغيره من بعده، وقف العلماء موقف العداء السافر من الكنيسة، ووقعت الجفوة العنيفة بين العلم والدين.

وانتصر العلم على الكنيسة للظروف التي شرحناها من قبل.. ثم ظلت الفرقة تتسع بين العلم والدين كلما فتح ميدان جديد أمام العلم، بينما الدين قابع هناك لا يملك الخروج من قاعة الكنيسة إلى زحمة الطريق.

وحدثت الفتنة حين خيل للناس – وللعلماء أنفسهم – أنهم سيطروا على قوانين الطبيعة، وأنهم على بعد خطوات من خلق الحياة.

هنالك نبذت أوربا إلهها – كما قال " سومرست موم " – وآمنت بإله جديد اسمه العلم. وتحللت نهائيا من فكرة الله والتدين، ومن كل القيم والمفاهيم التي صاغها الدين من قبل. وخيل لها أن في مقدورها – بل من واجبها – أن تصوغ اليوم قيمها كلها ومفاهيمها كلها، ولا تركن لوصاية عليها من الله أو سواه. فقد شبت اليوم عن الطوق و لم تعد في حاجة إلى وصايات!

اليوم كما قال " جوليان هكسلي ": يعبد الإنسان نفسه، فالإنسان هو الله.

وسمى هذا بأنه عهد انتصار الإنسان على الطبيعة والتخلص من الخرافة.

* * *

تلك هي العوامل التي أثرت في أوربا واتنهت بانهيار الدين والأخلاق والتقاليد.

وعلى وهن الدين في أوربا، ومع أنه كان قشرة على السطح، فقد احتاج إلى قرنين كاملين من الزمان، قرنين كاملين وهذه المطارق العنيفة المتوالية تدق فوقه في عنف، وتحطم فيه من كل جانب، ما تكاد إحداها تبدأ حتى تكون أختها قد لحقتها ومضت تطرق معها.. والبناء القديم صامد رغم وهنه وتفسخه.. حتى تزلزل في نهاية الأمر وانهار.

وقد كنا – إلى هذه اللحظة – نستعرض تلك العوامل.. نستعرضها في بيئتها التاريخية التي نبتت وفرخت فيها، ولكننا لم نناقشها ولم نفحص ما فيها من خطأ أو صواب.

هذه الدعاوى التي انطلقت واحدة إثر واحدة تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد وتؤدي إلى انهيارها..

هل كلها حقائق؟

أم إنها أباطيل؟

أمي هي في وقت واحد.. حقائق وأباطيل؟

حقائق وأباطيل

في الفصل السابق استعرضنا مجموعة التصورات الأوربية عن الكون والحياة والإنسان.. قبل " دارون " وبعد " دارون "ورأينا كيف ظلت مفاهيم الدين والأخلاق والتقاليد، وما حولها من مشاعر وإشعاعات، تهتز وتتأرجح.. وتتهاوى في نهاية المطاف.

وحين يقف الإنسان – كما وقفنا في الفصل السابق – يستعرض هذا الخط الطويل من التدهور المستمر والانحراف المتواصل، يأخذه العجب أن تكون هذه التصورات المهتزة المتخبطة المخبولة تصورات بشر. وبشر يزعمون أنهم ناضجون، وأنهم متعلمون، وأنهم عالمون. بشر يزعمون أنهم هم الناس. وأنهم خرجوا من ظلام العصور الوسطى، إلى نور المعرفة الحق الذي لا يضل فيه السالكون.

يأخذ الإنسان العجب أن تقوم على هذه التصورات حضارة. حضارة تقول إنها هي الحضارة الحقة، وأن كل ما عداها من حضارات التاريخ كان بالنسبة إليها مرحلة من مراحل الطفولة أو التأخر أو الظلام. حضارة تقول إنها القمة التي تتضاءل بجنبها جميع القمم، وجميع القيم، وجميع الأشياء.

يأخذ الإنسان العجب.. لولا ما يشاهده اليوم في هذه الحضارة من بوادر التفسخ والانهيار.

لقد وصلت الموجة الطاغية إلى آخر مداها، ثم أخذت في الانحسار. أخذت تهبط، ويهبط معها " الرجل الأبيض " الذي صنع في الأرض من المفاسد أضعاف ما قدم لها من وسائل التقدم الحقيقية ووسائل التعمير، والذي يوشك – قبل أن يغادر مكان السيادة الذي تقلده في القرنين السابقين – أن يحطم العالم كله ويهده من القرار.

نعم. لقد فقد الرجل الأبيض سيادته.. والذي يقول ذلك رجل أبيض عريق البياض، هو الفيلسوف الإنجليزي المعاصر " برتراند رسل " في تصريح حاسم أذاعه منذ سنوات [١٢]. فقد سيادته لأنه استنفد أغراضه.. لم تعد لديه فكرة صالحة يمنحها للبشرية.

---

[١٢] قال برتراند رسل: " لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض، وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة. وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون ".

فما كان لديه من أفكار صالحة غلب عليه الشر الكامن في تصوراته المنحرفة، وما كان لديه من الحقائق غلبت عليها الأباطيل.

*　　*　　*

وقد استعرضنا في الفصل السابق خطوات الزمن في أوربا، وما فعلته في أفكار الناس ومشاعرهم وحياتهم العملية.. ونريد في هذا الفصل أن نناقش تلك التصورات التي انتشرت من بعد " دارون "، وغيرت نظرة الإنسان لنفسه، ولمركزه من الكون، ومهمته في الحياة، وغيرت - من ثم - كل شيء فيه.

إنها مجموعة مختلفة من التصورات في كل اتجاه. في السياسة، والاجتماع، والاقتصاد، وعلم النفس، والفلسفة، والآداب والفنون.. ولكنها تكاد تنحصر في تصورات ثلاثة رئيسية:

١) حيوانية الإنسان وماديته.

٢) والتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات.

٣) وحتمية التطور الذي لا يد فيه للإنسان، ولا رأي، ولا اختيار.

فمن هذه التصورات الرئيسية الثلاثة انبعثت التفريعات والتطبيقات حتى شملت كل نشاط البشرية.

*　　*　　*

حيوانية الإنسان كان دارون هو بطلها المباشر.. ففي كتابه " أصل الإنسان " إيحاء شديد بحيوانيته، ونفي لكل التصورات الدينية والفلسفية السابقة التي وضعت هذا الكائن الإنساني في موضع الامتياز والتفرد، ورتبت على ذلك - ترتيباً منطقياً - تفرد الإنسان بنظم اجتماعية خاصة، ونظم أخلاقية خاصة، ليست لأحد غيره من الكائنات المعروفة، وهي هي مزية الإنسان على الحيوان.

وقد بينا في الفصل السابق بما يغنينا عن إعادة الحديث، كيف أدى تصور الإنسان لنفسه على أنه حيوان، إلى سلسلة متوالية من التحلل الفكري، والخلقي، والاجتماعي، لا

تكاد تتوقف عند حد.. فإذا ثبت لنا اليوم – بالمنطق والعلم – أن هذا التصور خاطئ من أساسه، فقد انهارت من أساسها كذلك كل المفاهيم التي استمدت منه وانبنت عليه، والتي فتنت الغرب في القرنين الماضيين، وفتنتنا – بالعدوى – كذلك في هذا القرن.

ولن نقوم نحن بمناقشة " الداروينية " في أمر حيوانية الإنسان. إنما الذي يناقشها عالم " دارويني " حديث هو " جوليان هكسلي " في كتابه " الإنسان في العالم الحديث ".

وآل هكسلي – ليطمئن القارئ – كلهم – ولله الحمد – ملحدون. وأشدهم إلحاداً هو " جوليان " هذا الذي ننقل هنا كلامه، فقد كان هو الذي قال – في هذا الكتاب ذاته – إن الله " سبحانه " كان خرافة خلقها الإنسان لنفسه لتؤنسه حين أحس بالوحشة في هذا الكون، وأنه قد آن الأوان لنبذ هذه الخرافة، ولأن يضع الإنسان نفسه مكان الله.

نعم. ليطمئن القارئ أن الذي يناقش " الداروينية " في أمر الإنسان هو عالم " دارويني ملحد ليس في قلبه قطرة واحدة من الإيمان.

يقول " هكسلي " بعنوان " تفرد الإنسان ".

" لقد تأرجح رأي الإنسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه، تفصل بينه وبين الحيوانات حينا هوة سحيقة جداً، وحيناً آخر هوة صغيرة جداً، ومن الممكن طبعاً تصغير الهوة أو تكبيرها، إما من ناحية الحيوان أو ناحية الإنسان.. ويستطيع الإنسان – كما فعل " ديكارت " – أن يصور الحيوانات كالآلات، أو – كما يفعل معظم السذج من الناس – أن يضفي عليها الكثير من صفات الإنسان.. أو يستطيع الإنسان أن يعمل في الطرف الإنساني من الهوة، وحينئذ إما أن يجرد جنسه البشري من صفاته ويدخله في عداد الحيوانات، أو يسمو به كثيراً إلى حد يجعله أقل قليلا من الملائكة".

".. وبظهور نظرية " دارون " بدأ الخطار يتأرجح عكسياً، واعتبر الإنسان حيوانا مرة أخرى.. ووصل الخطار شيئاً فشيئاً إلى أقصى مدى تأرجحه، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض " دارون ": فالإنسان حيوان كغيره (من الحيوانات) ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية والمثل العليا لا تستحق تقديراً أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس. والبقاء هو المقياس الوحيد الوحيد للنجاح التطوري. ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة. وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية. ومن

المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر"..

" و لم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان نتيجة المبالغة في إعطاء الحيوان صفات إنسانية، وإنما نتيجة التقليل من الصفات الإنسانية في الإنسان. ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطلق التحليل العلمي".

" إن الخطار يتأرجح ثانية، وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى. وبعد نظرية " دارون " لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً، ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً، وفي حالات كثيرة لا مثيل له. وتحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ تمامه بعد، وما هذا المقال إلا محاولة لعرض مركزه الحالي".

" وأولى خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصويري.. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة.. ومن أهم نتائج تزايد التقاليد – أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية – ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات.. وإن التقاليد والعدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية. وهذه السيادة البيولوجية – في الوقت الحاضر – خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة"..

".. وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات، كما تقول الأديان. ومع ذلك هناك فروق، وفروق هامة بعض الشيء بالنسبة لنظريتنا العامة، فمن وجهة النظر البيولوجية لم تخلق الحيوانات الأخرى لخدمة الإنسان، ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية في معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية، و لم تكن وجهة النظر الدينية صحيحة في تفاصيلها أو في كثير مما تضمنته، ولكن كان لها أساس جيولوجي متين" (١٣).

" ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى، ومعظمها واضح معروف"..

(١٣) لا يطيق جوليان – وهو ملحد – أن يسلم تسليما كاملا بأن وجهة النظر الدينية صحيحة، ويحرص على القول بأنها كانت تشتمل على أخطاء. ومع ذلك فقد اضطر كارها أن يقول إنها كانت تستند إلى أساس جيولوجي متين – أي أنها صحيحة. وقد حرصنا – على أي حال – على أن ننقل رأيه هنا كاملا دون أن نحذف منه مالا نوافقه عليه. وعلى الرغم من التواءاته فهو واضح الدلالة.

" والإنسان لا مثيل له أيضاً كنوع مسيطر، إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة، وتجمعت في أجناس وفصائل عديدة ومجموعات أكبر. أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام. ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد".

" وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره".

" وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية، وهي تفرد تاريخ تطوره".

" ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان في تطوره. وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر لهي التفكير المعنوي".

".. ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة عامة في خصائص الإنسان من ناحية التطور والمقارنة، والآن نعود إليها ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الإسهاب. فأولا يجب ألا يغرب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة.. وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات.. ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة.. وليست الثدييات بأفضل من ذلك.. بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطأ. ولا بد أن يكون سلوك الحيوانات عرفياً أي أنه ثابت في حدود ضيقة. أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حراً نسبيا – حراً في الأخذ والعطاء على حد سواء.... ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية، والإنسان أيضاً فريد في بعضها، فلقد أدت هذه المرونة مثلا إلى كون الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لا بد أن يتعرض للصراع النفسي.. ومع ذلك فطبقاً للآراء الحديثة توجد (في الإنسان) أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع".

" وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

الأولى قدرته على التفكير الخاص والعام.

الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

الثالثة: وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والعقيدة، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها".

" وهنا نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الإنسان إلى مرحلة الإنسان، وهي بلا شك فريدة من الناحية البيولوجية، ولنذكر منها العلوم الرياضية البحت والمواهب الموسيقية والتقدير والإبداع الفنيين والدين، والحب المثالي"..

" ولكن لا يكفي هنا أن نحصي بعض أوجه النشاط، ففي الحقيقة أن معظم أوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية، ولذلك فهي مثلها فذة من الناحية البيولوجية"..

" وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد.. وإن التجارب كتلك التي أجراها " بين بريل " في الحدس دون استخدام الحواس، وتلك التي قام بها " جلبرت مراي " في نقل الأفكار، وكثرة الكتابة من وقت لآخر عن قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل لتوحي بأن لبعض الناس القدرة على المعرفة عن غير الطريق العادي للإدراك عن طريق الحواس".

" وبذلك قد يكون الإنسان فريدا في أحواله أكثر مما نظن الآن [١٤] ".

ربما نكون قد توسعنا بعض الشيء في نقل النصوص من كتاب جوليان هكسلي – أكثر مما يطيقه هذا البحث الصغير – لا لأننا في حاجة إلى الاقتناع بتفرد الإنسان. فتفرد الإنسان بديهية لا يحتاج " الإنسان " إلى الجدل فيها أو التعب في الاهتداء إليها. وإننا لنعجب كيف انحرفت " الجاهلية " الأوربية هذا الانحراف العجيب في القرن التاسع عشر. حين آمنت – كما قال هكسلي – بحيوانية الإنسان. وكيف انطمست بصيرة العلماء فانجرفوا في التيار، يمعنون في تشويه صورة الإنسان وإلحاقه بالحيوان..

كلا. لم نتوسع في نقل النصوص من كتاب " هكسلي " لنقنع أنفسنا بتفرد الإنسان وبعده عن الحيوان.. وإنما لنبين أنه ليس الوجدان الديني وحده هو الذي اهتدى إلى هذه الحقيقة، بل إن " العلم " ذاته، العلم الذي يقوله رجل ملحد لا يؤمن بالله، قد اهتدى بعد طول الأرجحة والتعثر إلى أن النظرة العلمية البحتة شيء، وطريقة فهمها، أو طريقة توجيهها أو طريقة التأثر بها، شيء آخر قد يكون منفصلا تمام الانفصال. والعلم

[١٤] من كتاب الإنسان في العالم الحديث " تأليف جوليان هكسلي " ترجمة حسن خطاب ومراجعة الدكتور عبد الحليم منتصر. مقتطفات من ص ١ إلى ص ٣٦.

طاقة " محايدة " ليس خيراً ولا شريراً في ذاته. ولكن طريقة استخدامه وتوجيهه هي التي تولد منه الخير أو تولد الشر.

ولم يكن من الحتم – من نظرية " دارون " ذاتها، وعلى قلة المعلومات التي كانت متاحة له في وقته، وتأثير هذه القلة في استخلاص النتائج منها – لم يكن من الحتم أن يؤمن العلماء بحيوانية الإنسان. فإن تطبيق نظرية النشوء والارتقاء هو ذاته يوحي بأن يكون للإنسان مقاييس خاصة غير مقياس الحيوان.. ففي عالم الحيوان تجدّ مقاييس جديدة للحيوان كلما ارتقى في سلم التطور. فالحيوان الذي له عينان لا ينطبق عليه ما كان ينطبق على حيوان سابق ليست له عينان. والحيوان الذي يرضع صغاره له في حياته مقاييس غير مقاييس الطيور التي تبيض وتحتضن البيض أو الحشرات التي تبيض وتترك البيض للظروف.. أفلا يكون للإنسان الذي ارتقى عن الحيوان في كذا وكذا وكذا، مقاييس خاصة غير مقاييس الحيوان؟!

لقد كانت " الجهالة " هي التي تحرك أوربا في القرنين الماضيين، في صميم الوقت الذي خيل للناس أن العلم هو الذي يوجه الحياة هناك.

الإنسان إذن إنسان!!!

حتى " جوليان هكسلي " الذي لا يؤمن بالله، ولا يؤمن بأن لله قصداً في خلق الكون وخلق الإنسان، ولا يؤمن " بروحانية " الإنسان، ولم يورد ذكر الروحانية قط في حديثه.. حتى " جوليان " هذا يقول إن الإنسان إنسان، وإنه متفرد في إنسانيته.

الحمد لله والشكر والثناء...

وإذن فكل الاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأدبية والفنية والـ.... التي تفرعت عن الإيمان بحيوانية الإنسان كانت منحرفة وخاطئة وغير جديرة بالاعتبار.

وقد كان يكفي – علميا – أن نبين فساد الأساس الذي قامت عليه هذه الاتجاهات كلها، لنثبت أن هذه الاتجاهات – القائمة على أساس منحرف – لا يمكن أن تكون سليمة، ولا يمكن أن تكون على صواب.

ومع ذلك فسنمضي في مناقشة تلك الآراء المنحرفة لنبين ما فيها من انحراف ذاتي بصرف النظر عن انحراف الأساس.

فحين يقول التفسير المادي للتاريخ: إن تاريخ الجنس البشري هو تاريخ البحث عن الطعام (!) يغفل بديهية بسيطة واضحة، يعجب الإنسان كيف يتأتى لبشر إغفالها بهذه السهولة. يغفلٍ أن تاريخ الحيوان كله هو كذلك تاريخ البحث عن الطعام. فلماذا صار الإنسان إنساناً يا ترى وبقي الحيوان على حيوانيته مع أنهما مشتركان في الأصل وفي التاريخ؟ لماذا أقام الإنسان النظم والأفكار والعقائد والحضارات والمصانع، إن كان تاريخه هو مجرد البحث عن الطعام؟ ولماذا لم يظل – كما ظل أسلافه من الحيوان – مثلا – في نطاق الصيد والافتراس؟

ألا تلفت هذه البديهية النظر؟ ألا تفتح البصيرة؟

يبحث الإنسان عن الطعام. نعم هذه حقيقة. ويتأثر تاريخه بالبحث عن الطعام. نعم. هذه حقيقة. لأن الطعام " جزء " من حياة الإنسان. وكل جزء لا بد أن يؤثر في المجموع.

أما أن يكون تاريخه هو تاريخ البحث عن الطعام، وتقوم على هذا نظريات وعلوم، ويتخصص فيها علماء وفلاسفة ومفكرون، فعجيبة من عجائب الجاهلية الحديثة التي تقوم باسم العلم والعرفان!

هل يمكن أن يصل مخلوق إلى شيء ليس مهيأ له ولا يملك إمكانياته؟

أليس سلوك الحيوان ثابتا كما قال " هكسلي " لا يتنوع ولا يتغير ولا يرتقي، لأن الحيوان ليس مهيأ لأكثر مما هو عليه؟

أليس وصول الإنسان إلى إقامة النظم والأفكار والعقائد والحضارات يدل على أنه مهيأ لكل ذلك وقادر عليه؟ أليس يدل على أنه منذ نشأته – وبطبيعة احتكاكه بالكون من حوله – قد نبتت فيه البذور الأولى لهذه " المعنويات " كلها، نباتاً أصيلا منبثقاً من صميم كيانه ومن طبيعة تهيئه؟ أليس يدل – بعد ذلك – على أنه – حتى وهو يبحث عن الطعام – وهو بحث دائم لا ينقطع إلى هذه اللحظة وإلى الغد – لم يكن مستغرقاً في البحث عن الطعام وحده، لأن في نفسه جوانب أخرى تبحث هي الأخرى عن غذائها، وأنه – حتى وهو يبحث عن الطعام – لم يكن يبحث عنه بمعدته وحدها كما يفعل الحيوان، ولا بمعدته وعقله فحسب، بل بجوانب أخرى " أرقى "، هي التي هدته – مثلا – إلى إنضاج الطعام وتسويته، ثم إلى التأنق في أكله والتأنق في تقديمه؟

أم نحن مخطئون؟!

وحين قال " فرويد " إن تاريخ البشرية هو تاريخ دوافعها الجنسية، ثم حصر دوافعها الجنسية بعد ذلك في دوافع الحيوان، فإنه أغفل بديهية بسيطة واضحة، يعجب الإنسان كيف يتأتى للبشر أن يغفلوها بهذه السهولة. أغفل أن سلوك الإنسان الجنسي مختلف في طبيعته عن سلوك الحيوان.

فعلى فرض التسليم المطلق بالأسطورة البشعة التي ابتدعها " فرويد " ليفسر بها تاريخ البشرية، تاريخ عقائدها، وأفكارها، ونظمها، وحضارتها.. على فرض التسليم المطلق بهذه الأسطورة التي ليس له عليها دليل، فإنها هي ذاتها تبرز إنسانية الإنسان!!

اتجه الأبناء إلى أمهم بشهوة الجنس فوجدوا أباهم هو العقبة في طريقهم.. فقتلوه.

ثم أحسوا بالندم على فعلتهم.

فأقسموا ليقدسن ذكراه.. فنشأت العبادة.

ووجدوا أنهم سيقتتلون فيما بينهم للحصول على الأم.. فقرروا ألا يمسها أحد منهم.. فنشأت " المحرمات ".

وقرروا أن يتعاونوا فيما بينهم بدل الاقتتال.. فنشأ التعاون الجماعي في حياة البشرية.

نعم.. وسنرضى – مؤقتاً – بهذه الأسطورة.

فماذا فيها؟

فيها أولا: أنهم ندموا على فعلتهم.

وإذن ففي صميم الكيان البشري، في ظلماته الأولى، قبل فجر التاريخ، قيم أخلاقية للأفعال بجانب الدفعة الغريزية الخالصة.

الحيوان لا يندم على فعلته. ليس له تقدير خلقي لأفعاله. ليس له حاسة تقول له – فيما عدا الفعل المنعكس [١٥]، وهو حسي بحت – إن هذا العمل خاطئ أو إن ذاك العمل صواب.

ولكن هؤلاء الأبناء – كما يقول " فرويد " – ندموا على فعلتهم. وإذن ففي كيانهم حاسة تعطي للعمل قيمة خلقية، ولا تترك الحكم عليه لدفعة الغريزة.

وقد تندفع الغريزة فتتغلب عى " الحاسة الخلقية " وتسكتها. نعم إن ذلك يحدث، ولكنه لا يعني أن الحاسة الخلقية غير موجودة، أو أنها مفروضة على الإنسان من خارج نفسه دون أن يكون لها من الداخل رصيد..

كلا! فهذه الحاسة الخلقية جزء أصيل من كيان الإنسان. استعداد فطري ينمى من الخارج، أو يُضعف من الخارج. ولكنه دائماً هناك في أعماق الفطرة ولو كره الحيوانيون.

وفي الأسطورة ثانياً: أن الأبناء قرروا أن " يحرّموا " على أنفسهم لونا معيناً من النشاط الذي تدفعهم إليه – فيما يزعم " فرويد " – دوافعهم الغريزية..

وأياً كان الدافع على هذا التحريم فهو عملية إنسانية بحتة لا دخل فيها للسلوك الحيواني. فمجتمع البقر الذي حكى عنه " دارون " لم يحرم على نفسه شيئا قط في هذا الموضع، و لم يعتبر بملايين الملايين من أسلافه الذين قتلوا في العراك على الأم، و لم تمنعه جراحه الواقعة والمرئية من الاستمرار في المعركة إلى نهايتها التي يتقرر فيها الظفر أو الهلاك.

وإذن ففي مقدور الإنسان أن يحرم على نفسه – مختارا، ومن أجل منفعته النهائية غير المرئية أو المحسوسة – ألوانا من النشاط الغريزي لا يستطيع تحريمها الحيوان. وذلك يستلزم أن يكون في كيانه القدرة على الضبط – أو القمع والكبت كما قال هكسلي – وهي قدرة – كما قال هكسلي أيضا – فريدة لا يملكها إلا الإنسان.

وفيها ثالثاً: أن الأبناء قرروا أن يتعاونوا فيما بينهم ولا يقتتلوا، وهو أمر لا يحتاج إلى تعليق.

---

(١٥) في الفعل المنعكس يرتبط الألم الحسي أو اللذة الحسية بعمل معين، فيبتعد عنه الحيوان أو يقبل عليه نتيجة هذا الارتباط. كما يمتنع الكلب عن دخول حجرتك لأنك ضربته على ذلك وآلمته، وكما يقبل عليك ويداعبك إذا ربتّ عليه.

ولسنا – بعد – نؤمن بأسطورة " فرويد ". وليست وسيلتنا لإثبات إنسانية الإنسان أن نستمد البرهان من الأساطير كما يفعل العلماء المحققون! فتاريخ الإنسان الواقعي في الأرض غني بالدلالات على إنسانيته. وإنما أردنا فقط أن نقول إنه حتى هذه الأسطورة البشعة التي تتمثل فيها أقذر صورة للبشرية، تحمل في أطوائها الدليل على إنسانية الإنسان!

ونحب أن نؤكد هنا حقيقة لم نكن في حاجة إلى توكيدها، لولا الجدل الطويل العريض الذي ثار بين النظريات المتنازعة في أوربا. والذي وصل بالمتناظرين إلى التطرف المعيب، كل منهم يأخذ طرفاُ من القضية ويجذبه إلى أقصى الغاية.

إننا حين نؤكد إنسانية الإنسان فإن ذلك ليس معناه أننا ننكر الجانب الحيواني فيه.

كلا! فالجانب الحيواني في الإنسان موجود دون شك. وإنه الحقيقة. ولكن الجانب الإنساني موجود كذلك. وهو لا يتمثل فقط في عقل الإنسان ونفسه وروحه، وهي الجوانب التي تفرد بها وتميز عن الحيوان، بل يتمثل كذلك في قيام الإنسان بضروراته الحيوانية على طريقة الإنسان لا على طريقة الحيوان.

يأكل ويشرب، ويلبس ويسكن، ويقضي " ضرورته " ويستجيب لدوافع الجنس.. كل ذلك على طريقة الإنسان. الطريقة التي " تهذب " القيام بالضرورة، وتحيطها بآداب معينة تطلف غلظها وتخفف من معنى " الضرورة " فيها، إذ تجعلها سلوكا وأدبا فيه ترفع وفيه " اختيار ".

هكذا يصنع " الإنسان ". وفي ذلك يتفاضل بشر عن بشر وجيل عن جيل. فكلما تهذبت المشاعر ونظف السلوك، وخرجت الضرورة عن قهرها القاهر، فأصبحت سلوكا مهذباً " تختاره " النفس، كان الإنسان " أرقى " وأبعد عن الحيوانية. وكلما هبط الإنسان إلى عالم الضرورة، بغلظها كله، وضراوتها كلها، ولم يعد " يختار " سلوكه في أدائها بل يقضيها بدفعة الغريزة المباشرة وبأسلوب الغريزة، كان ألصق بالحيوان وألصق بالأرض، وكان راجعاً إلى الوراء. إلى الوحشية والهمجية والتأخر والظلام..

وقد ظل هكذا إحساس الإنسان بنفسه ونظرته إلى سلوكه، حتى اهتدى على يد " دارون " و " فرويد " إلى أنه لا يجوز له أن يصنع ذلك، لأنه حيوان!

أما مادية الإنسان، بمعنى حصره في نطاق حواسه ومحيطه المادي، فقد كانت – على رأي هكسلي – تبدو نتيجة منطقية لنظرية " داروِن " عن حيوانية الإنسان. فالحيوان محدود بنطاق حواسه، ومن ثم كان الإنسان – الذي هو حيوان – محدودا كذلك بالمحيط المادي وبما تدركه الحواس.

وفي ذلك أيضاً نترك آل هكسلي – اثنين منهم – يردان على هذا الزعم الباطل، وإن كانا ملحدين، لا يصلان إلى الاعتراف بقدرة الإنسان على الاتصال بالله:

يقول جوليان هكسلي: " وإن التجارب كتلك التي أجراها " بين تيريل " في الحدس دون استخدام الحواس، وتلك التي قام بها " جلبرت فراي " في نقل الأفكار، وكثرة الكتابة من وقت لآخر عن قراءة الأفكار والتنبؤ بالمستقبل، لتوحي بأن لبعض الناس القدرة على المعرفة عن غير الطريق العادي للإدراك عن طريق الحواس ".

ويقول " ألدوس هكسلي " – وهو ملحد وإن كان أقل إلحاداً من أخيه جوليان: " إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزودون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس. وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له. فإنه لا يزيد عن جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منا لا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك أو التذكر؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية ".. ثم أورد في نهاية كلامه مقالة للدكتور " راين " أحد العلماء المشتغلين بهذه الأبحاث حيث قال: إن هذه الحقائق تدخلنا رويدا رويدا إلى عالم الدين.

ولسنا ننقل هذه الأقوال لنستمد منها البرهان على اتساع نطاق الإنسان وعدم انحصاره في محيط المادة ومحيط الحواس. كلا. فلسنا في حاجة إلى شهادة " العلم التجريبي " في هذا الشأن، والشواهد الملموسة في حياة البشرية غنية عن البيان. وإنما نوردها فقط لنقول: إنه حتى العلم المادي الكافر لم يستطع أن يقف بالإنسان عند هذه الحدود الضيقة التي حصرته فيها " الداروينية " القديمة أكثر من قرن من الزمان.

ويعجب الإنسان بعد انقضاء تلك الفترة الطويلة من الجاهلية المظلمة التي تقوم باسم العلم، كيف استطاع الإنسان أن ينتكس هذه النكسة، فيتنكر لنفسه وطاقاته، ويقعد كسيحاً محصوراً وهو يملك الرفرفة والانطلاق! كيف يسد على نفسه وسائل المعرفة إلا وسيلة واحدة، مهما يكن من سعتها فهي ضعيفة، ومهما يكن من شمولها فهي جزئية، ومهام يكن من تعمقها فهي لا تستطيع أن تدرك إلا ظواهر الأشياء.. كيف يقطع

صلته بالقوة العظمى وينعزل، كما ينعزل الدود والهوام والأشياء، وهو يملك – بالاتصال بهذه القوة – أن يوسع حياته ويوسع نفسه ويوسع صلاته بالكون والحياة.. وأن يعيش مع أخيه الإنسان على أرحب نطاق شعوري وعملي.. على رباط الحب المتبادل، ورباط العقيدة في الله.

كيف.. إلا أن تكون النكسة إلى عالم الحيوان. نكسة ينفخ فيها " العلم " ويباركها الشيطان.

إن الإنسان كائن ضخم هائل. إنه معجز. وأكبر الإعجاز فيه هو هذا المزيج العجيب من طين الأرض ونفخة الله العلوية في روحه: " قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية من حديد ونحاس وكلسيوم وفوسفور وأكسوجين وأيدروجين، وتتمثل فيها شهوات الأرض ودوافع الأرض. ونفخة من روح الله تتمثل فيها روح الإنسان الشفيفة القادرة على السمو والرفعة، كما تتمثل فيها الإرادة الضابطة والقدرة على الاختيار [١٦] " فأي حماقة يرتكبها الإنسان حين يفصل عنصريه هذين – اللذين تتمثل في امتزاجهما معجزة القدرة القادرة – ثم يلقى بأحدهما بعيداً عنه، ليكتفي بجانب واحد، وهو يملك الجميع؟ ولقد كان الإنسان – وهو يدمر طاقته على هذا النحو، ويسعى بها إلى الانحلال – يبعد في الوقت ذاته عن فطرة الحياة كلها، في الوقت الذي كان يتصبب عرقاً من البحث في ظواهر الحياة!

إن فطرة الحياة العميقة في الأحياء كلها – بله الإنسان – لا تكتفي بأداء " الضرورة " من أقرب طريق – كما زعم " دارون " وهو يدرس أجسام " الأحياء " – بل إنها تهدف دائماً إلى إحسان " الأداء " في ذات الوقت الذي تهدف فيه إلى " صحة " الأداء. أي أنها لا تكتفي بالضرورة وإنما تهدف إلى الجمال.

أرأيت هذه الزهرة الجميلة الفياحة الشذى المتناسقة الألوان؟

أتظن ذلك ضرورة؟

قالوا: لتجذب إليها النحل فينتج منها العسل غذاء وشفاء للناس. وتساعد كذلك في تلقيح النبات.

---

[١٦] من كتاب " قبسات من الرسول ".

فهل تظن ذلك؟ هل من " الضرورة " بالقياس إلى النحل أن يكون في الزهرة كل هذا الجمال؟

كلا والله. فالنحل خلق متواضع. وإنه ليحط على الزهرة الأريجة الفاتنة كما يحط على الزهرة العادية الجمال.

فليس جمال الزهرة إذن ضرورة. وكل الأهداف " البيولوجية "يمكن أن تتم في أبسط زهرة كما تتم في أجمل زهرة.

ورأيت هذه " الطبيعة "؟

رأيت حمرة الشفق المبدعة ورأيت جمال الصبح الوليد؟

رأيت روعة الجبال التي تبهر الأنفاس وتهز الوجدان؟

والبحر الممتد إلى غير نهاية منسرب الموج. تراه في الليل الساكن كأنما تعمره الأطياف.. أو الأشباح؟

والليلة القمراء.. هل " ذقتها "؟ و " ذقت " طعم السحر في ضوئها، وظلها، وأطيافها الساربة وحديثها المهموس؟

هل تظن ذلك ضرورة؟

وأين هي الضرورة في ذلك كله، والحياة ممكنة ومستطاعة بغير هذا الجمال؟

ورأيت هذا الوجه الفاتن؟

هاتان العينان الحالمتان اللتان يطل منهما عالم عميق الأغوار.. تلك التقاطيع المنسقة.. هذا المعنى المعبر.. تلك " الروح " التي تطل من وراء القسمات؟

تظن ذلك ضرورة؟ وما الضرورة؟

أليست كل العمليات " البيولوجية " من طعام وشراب وتنفس تتم في أقبح وجه وأجمل وجه على السواء؟

بل.. نداء الجنس ذاته. أليس يتحقق في كل أنثى وكل ذكر بصرف النظر عن ذلك الجمال؟

كلا. إنه ليس " ضرورة ".. وإنما هو " جمال ".

هو إحسان في الأداء لا مجرد الأداء.

تلك فطرة الحياة كما خلقها الله.. فطرة الطبيعة " (١٧).

تلك هي الفطرة التي نسيها الإنسان وهو يبحث في الظواهر المحسوسة للأشياء، ونسي معها نفسه، وهبط إلى عالم الضرورة، يكتفي بأداء الضرورة من أقرب طريق، ولا يهدف إلى الإحسان في الأداء. الإحسان الذي يحمل معنى التهذيب والارتفاع.

ولا عجب. فحين ينحرف الإنسان عن الله، فهو ينحرف كذلك عن الفطرة، ويرتكس في الظلمة إلى حمأة الطين والعياذ بالله!

* * *

تلك قضية الحيوانية التي انبعثت من نظرية " دارون "، وذلك مبلغها من الحق ومداها من الضلال..

أما القضية الثانية التي انبعثت من تلك النظرية فهي قضية التطور الدائم الذي يلغي عنصر الثبات.

كانت فكرة التطور شيئاً جديداً على الفكر الأوربي في نهاية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. كانت " ترفا " عقليا يناقشه العلماء فيما بينهم ويؤلفون فيه، ولكنها لم تصبح فكرة " شعبية " ولم تأخذ صورتها الحادة إلا بعد نظرية " دارون " فقد وجدت في تلك النظرية سنداً علمياً كان يعوزها من قبل، سنداً من صميم فطرة الحياة. ومن ثم ملأت تفكير العلماء بصورة جدية، ومن هناك انتقلت إلى أفكار الجماهير، فتلقفوها بما يشبه اللوثة، وصاروا يفسرون بها كل شيء على ظهر الأرض، ويخيل إليهم – من شدة اللوثة – أن الحياة كلها بلا قواعد، والكون كله بلا ناموس!

(١٧) من كتاب " قبسات من الرسول " فصل: " وليرح ذبيحته ".

وكان التفكير الديني خاصة قد ألح في فكرة الثبوت في العصور الوسطى حتى جعلها عقيدة حين ظن رجال الدين أن ثبوت الخالق – سبحانه – وثبوت قصده من الخلق، معناه ثبوت كل شيء من خلقه، ومعناه ثبوت الإنسان بنظمه وعاداته وتقاليده، وكل ما حوله من شئون تتصل بحياته. وأغراهم بهذا الظن – كما قلنا في الفصل السابق – ما كان شائعاً في علوم ذلك العصر من فكرة الثبات.. لذلك كانت فكرة التطور – بعد إثباتها من جانب العلم – صدمة مذهلة بالنسبة للجماهير – بل بالنسبة للعلماء كذلك – صدمة أفقدتهم اتزانهم فراحوا يخبطون في كل واد " ويحسبون أنهم مهتدون! ".

وذلك في القرن التاسع عشر!

بينما كان علماء المسلمين قبل ذلك بعشرة قرون قد فرقوا تفريقاً واضحاً بين ثبات الخالق – سبحانه – وتطور خلقه..

يقول " دريبر " الأمريكي في كتابه: " النزاع بين العلم والدين ":

" وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر. ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً، كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه، وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً ".

وكذلك أحس المسلمون إحساساً واضحاً بتطور الحياة البشرية، فكتب ابن خلدون في مقدمته – وهو في الحقيقة أول عالم اجتماع بالمعنى العلمي الحديث – يصف تطور المجتمعات، والعوامل المختلفة التي تؤثر في ذلك التطور. كما أن الفقه الإسلامي ذاته تطبيق عملي لفكرة التطور البشري. ذلك أن مهمته الدائمة هي البحث عن حلول جديدة مستمدة من أصول الدين وروحه، لمواجهة ما يجد من مشاكل البشر وحاجاتهم، أو كما قال عمر بن عبد العزيز: " يجدّ للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من القضايا ".

ولو كان رجال الدين في أوربا في القرن السابع عشر والثامن عشر في مثل هذا الفهم الناضج الذي كان عليه المسلمون في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) لما صدمتهم بحوث العلم الجديدة، ولا قامت النفرة بينهم وبين العلم، تلك النفرة التي أدت بأوربا إلى الهاوية في نهاية المطاف.

* * *

الحياة البشرية تتطور. نعم. والكون كله يتطور.. فهل معنى ذلك أنه لا توجد قواعد ثابتة في هذا الكون وفي الحياة البشرية؟

السدم تتطور إلى نجوم.. والنجوم تتطور وهي تدور، فتسخن وتبرد، وتنبعج وتتكور، وتسرع وتبطئ.. ولكن شيئاً من ذلك لا يحدث بلا قانون، وشيئاً من ذلك لا يحدث مخالفاً للناموس. الناموس الذي يكشف العلم طرفاً منه كلما تيسرت له الوسائل وأتيحت له الأدوات.

والإنسان يتطور.. تتغير حياته يوما عن يوم، ويستحدث جديداً كل يوم. ولكنه مع ذلك خاضع للنواميس. النواميس ذاتها التي تحكم الكون وتحكم الحياة.

يتطور الكون.. فهل تتغير طبيعته؟ هل يتغير تكونه من طاقة أو مجموعة من الطاقات؟

كلا! لم يقل بذلك أحد من العلماء. وإنما تتغير صوره وحالاته، ويظل جوهره ثابتاً على ما هو عليه.

والإنسان كذلك يتطور.. فهل تتغير طبيعته؟ أم تتغير صوره وحالاته ويثبت الجوهر الذي فيه؟

وما الذي تغير في كيان الإنسان على المدى الطويل والتقلب الدائم بين مئات من الظروف والأحوال؟

لقد أحدثت الثورة الصناعية تحولات كبيرة في سير المجتمع الأوربي، تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية وخلقية.. فخيل للناس في وهلتهم من التحول السريع المتلاحق أن كل ما حدث جديد كل الجدة، لم يحدث له شبيه من قبل، ومن ثم ركبهم هذا الوهم: أنهم خلق جديد لا ارتباط بينه وبين الخلق السابق ولا تشابه. وإذن فليس هناك خط متصل في الحياة البشرية، ولا كيان ثابت اسمه الإنسان.

ولو كانوا أعقل من ذلك وأوزن، أو لو كانت فكرة التطور مألوفة لديهم – كما كانت مألوفة في الفكر الإسلامي – ما اشتطوا هذا الاشتطاط كله، وما وقعوا في هذا الوهم الخطير.

ما الذي تغير في كيان الإنسان في تلك الأمواج المتلاطمة التي أحدثتها الثورة الصناعية؟

هل تغير بحثه عن الطعام أو بحثه عن الجنس أو بحثه عن الأمن أو بحثه عن البروز والتميز؟

هل تغير تركيبه النفسي من دوافع فطرية جياشة وقوة ضابطة واعية أو غير واعية، قوية أو ضعيفة، عاملة أو غير عاملة؟

هل تغير نزوعه إلى البقاء؟ ونزوعه إلى الامتداد؟ ونزوعه إلى المعرفة؟ ونزوعه إلى الخلود؟

وهل تتغير هذه أبدا؟. أم تتغير الصور والحالات، ويظل الجوهر بدون تغير؟

إنه لا يجوز أن يخدعنا تنوع المطالب وتنوع الظروف. فالصور والأشكال هي التي تنوعت في الواقع، ولكن الرغبات الرئيسية والمخاوف الرئيسية لم تكد تتغير. وهذه هي " الكيان " الذي يسمى الإنسان.

يرغب الإنسان في الطعام. فيأكله فريسة نيئة، أو عشباً من الأرض، أو يأكله مطهوا في بساطة ويده تنهش بلا أدوات. أو يأكله على المائدة الفاخرة بالشوكة والملعقة والسكين في تأنق وترفق وأناة.

ما الذي تغير؟ طريقة الأداء أم الرغبة الكامنة في الطعام؟

ويرغب الإنسان في الجنس. فيقضيه كالحيوان في الغابة. أو يقضيه في بساطة وسرعة. أو يقضيه في تأنق وغزل وتفنن. يقضيه خلسة مغتصبة في ظلمة المشاعر. أو يقضيه في اطمئنان نفسي في ظل شريعة وقانون.. ما الذي تغير؟ طريقة الأداء أم الرغبة الكامنة في الجنس؟

ويرغب الإنسان في المسكن فيصنع في الغابة كوخاً من جذوع الأشجار، وفي القرية كوخاً من الطين أو بيتاً من الآجر، وفي المدينة ينشئ عمارة مزودة بأحدث الوسائل وأحدث الأدوات.. ما الذي تغير؟ هل تغيرت الرغبة في السكن أم تغير الشكل والأسلوب؟

ويرغب الإنسان في ارتداء الملابس للزينة ولدفع غوائل الجو ولغير ذلك من الأسباب. فيصنع في الغابة رداء من الجلد، وفي البيداء رداء من الوبر، وفي الصقيع رداء من الفرو، وفي المدينة رداء من النسيج المختلف الألوان.. ما الذي تغير؟ هل تغيرت الرغبة في ارتداء الملابس أم تغيرت الصور والأشكال؟

ويرغب الإنسان في وسائل الراحة فيصنع فراشاً من ورق الشجر تارة، ومن ريش النعام تارة، ومن القطن المندوف تارة، ومن المطاط المحشو تارة.. ما الذي تغير؟ هل تغيرت الرغبة في الراحة أم تغيرت الوسائل والأشكال؟

ويخشى الإنسان الموت. يخشاه في الغابة، ويخشاه في القرية، ويخشاه في المدينة، ويخشاه في البر، ويخشاه في البحر، ويخشاه في الهواء. ويتخذ لذلك مشاعر شتى وتحايلات شتى وتحوطات شتى.. فما الذي يتغير؟ الخوف المتأصل أم المظاهر والأشكال؟

ويتشاجر الرجل مع زوجته.. يتشاجر معها لأنها لم تحضر له " القلة " ليشرب، أو يتشاجر معها لأنها تصر على وضع كلبها المدلل إلى جانبها في الفراش، أو لأنها تذهب بدون إخطاره أو إذنه حيث تشاء.. فهل الذي تغير هو المظهر أم تغيرت القضية الخالدة، قضية الرجل والمرأة، أيهما صاحب الرياسة والسيطرة، والسفينة لا تحمل عادة اثنين من الرؤساء!

ويكدح الإنسان من أجل العيش. يكدح بالصيد في الغابة ويكدح بالعمل في الصنع. ما الذي يتغير؟ مظاهر الكدح أم الواجب الذي لا محيص عنه؟

وغيره وغيره مئات من المشاعر ومئات من الأفكار ومئات من الأعمال..

إن في الإنسان عنصراً ثابتاً لا يتغير مهما تغيرت ظروفه ومهما تغيرت حياته على الأرض، لأنه يتصل بحقائق أزلية لا يدركها التغيير. وفيه إلى جانب ذلك عنصر متغير. أو قل: صور متغيرة من الجوهر الثابت، وحالات متطورة للكيان الدائم، ولكنها في تغيرها وتطورها لا تخرج بالإنسان عن كونه الإنسان، ولا تنفصل لحظة واحدة عن كيانه الدائم، بحكم وحدة النفس الإنسانية وترابطها، وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان.

هناك حقائق أزلية في تكوينه:

أنه صدر عن إرادة الله: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً[١٨] ".

وأن البشر جميعاً من نفس واحدة: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [١٩] ".

وأن من هذه النفس – أي من جنسها – قد خلق " الزوج " الذي يكملها ويلتقي بها ويوائمها: " خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [٢٠] ". " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً [٢١] ".

وأن من هذه النفس وزوجها انبث الخلق كلهم والقبائل والشعوب: " خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً [٢٢] ". " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [٢٣] ".

وأن الإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله. قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر الأرض المادية من حديد ونحاس وكلسيوم وفسفور وأكسجين وأيدروجين، وتتمثل فيها شهوات الأرض ودوافع الأرض. ونفخة من روح الله تتمثل فيها روح الإنسان الشفيفة القادرة على السمو والرفعة، كما تتمثل فيها الإرادة الضابطة والقدرة على الاختيار: " وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ " [٢٤]. " فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [٢٥] ". " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [٢٦] ".

تلك عناصر ثابتة لا تتغير مهما تغيرت " مظاهر " الحياة.

---

[١٨] سورة البقرة (٣٠).
[١٩] سورة النساء " ١ ".
[٢٠] سورة النساء " ١ ".
[٢١] سورة الروم " ٢١ ".
[٢٢] سورة النساء " ١ ".
[٢٣] سورة الحجرات " ١٣ ".
[٢٤] سورة المؤمنون " ١٢ ".
[٢٥] سورة الحجر " ٢٩ ".
[٢٦] سورة الشمس " ٧ – ١٠ ".

وإلى جانب ذلك عنصر متغير. أو قل " صور " متغيرة من الجوهر الثابت و " حالات " متطورة للكيان الدائم. ولكنها في تغيرها وتطورها لا تخرج الإنسان عن كونه إنساناً، ولا تنفصل في لحظة واحدة عن كيانه الدائم، بحكم وحدة النفس وترابطها، وشمولها لكل ما يشتمل عليه الإنسان.

وقد ترتب على الحقائق الأزلية حقائق أخرى، فصارت مثلها خالدة دائمة لا تتغير.

ترتب عليها أن يحس الناس – بفطرهم ما دامت سليمة – يحسوا بعظمة الله بالقياس إلى ضآلتهم، فيعبدوه، ويستمدوا منه العون في الحياة.

وترتب عليها أن يحس الزوجان – اللذان خلقهما الله من نفس واحدة – بحنين والتصاق بعضهما ببعض، وأن وجودهما لا يتكامل إلا متحدين متوادين متراحمين.

وترتب عليها أن يحس الناس – حين تصفو سريرتهم وتنظف نفوسهم – بالأخوة في الإنسانية، إذ هم جميعاً من نفس واحدة ذات رحم مع الجميع، فيتعاونوا أو يتشاركوا في الخير...

تلك عناصر دائمة لأنها ترتكز على أسس دائمة [٢٧] ".

وتلك هي الأسس التي تقوم عليها العقيدة، وتقوم عليها الأخلاق.

*　　*　　*

العقيدة في الله عنصر ثابت في النفس البشرية. عنصر قائم في صميم الفطرة، يهدي البشرية إلى خالقها ولو لم تنبه إليه. وإنما الانحراف الذي يحدث هو انحراف في طريقة تصور الله، وليس انحرافاً عن الإيمان بأن هناك قوة – ما – خالقة قادرة، هي التي خلقت الكون والحياة والإنسان [٢٨]. ومهمة الأنبياء والرسل الدائمة هي هداية البشرية إلى التصور الحق، الذي تنبع منه بعد ذلك المشاعر الصحيحة والسلوك الصالح والتنظيم السليم.

---

[٢٧] من كتاب " قبسات من الرسول ".

[٢٨] الذين لا يؤمنون بوجود الخالق أصلا قلة شاذة لا يكاد يحسب لها وجود.

هذه العقيدة لم " تتطور " كما يزعم التفسير المادي للتاريخ أو غيره من الدراسات الاجتماعية التي ظهرت في القرنين الأخيرين. إن عبادة الأب وعبادة الطوطم وعبادة الوثن لم تكن هي تطور العقيدة الذي وصل في النهاية إلى التوحيد. إنما هذا كان تطور الانحراف البشري عن العقيدة الصحيحة في عصوره المختلفة. وليس صحيحاً – من التاريخ – أنه مرت على البشرية سلسلة منتظمة من العقائد الضالة أدت في النهاية إلى التوحيد. إنما الثابت – من التاريخ – أن البشرية مرت في دورات متعاقبة من الهدى والضلال. من التوحيد والتعدد. من التجريد والتجسيم.

وكل " التطور " البشري لا يمس هذا العنصر الثابت في جوهر الكون وصميم الإنسان، إلا حين ينحرف عن التصور الصحيح، وحتى حينئذ فالتطور يشمل الصورة ولا يشمل الأساس.

وليس في حياة البشرية – على اختلاف ظروفها وتطور أحوالها – سوى أحد وضعين متقابلين الهدى أو الضلال في التصور.. العقيدة المستقيمة أو العقيدة المنحرفة عن سواء السبيل.

وليس للإنسان وضع – على اختلاف طروفه وتطور أحواله – إلا أحد هذين الوضعين المتقابلين، سواء في ذلك إنسان المدينة أو سكان الغابات.

ومن ثم فالبشرية في واقعها ذات طورين اثنين، متعاقبين متغايرين: إما الهدى وإما الضلال.

أما " الأطوار " التي يذكرها التفسير المادي للتاريخ، والتي يوهم بها أن هناك خطاً صاعداً في الحياة البشرية، صاعداً أبداً، ومتقدماً أبداً إلى الأمام.. هذه الأطوار ترسم الظاهر ولا تدخل إلى الأعماق. إنها ترسم التطور المادي للحياة البشرية، ولكنها لا تصف حقيقة الحياة البشرية.

إن هناك خطاً واحداً صاعداً على الدوام هو خط " العلم " لأنه بطبيعته كذلك. كل خطوة فيه تؤدي إلى ما بعدها، إلى ما هو أكبر منها. أما الخط " النفسي " فليس كذلك. إنه لا يصعد على الدوام ولا يسير في خط مستقيم. إنه يصعد وينتكس، ويستقيم ويعوج، ويهتدي ويضل على مدار التاريخ: " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين ". ومدار هذا " التطور " أو التغير، هو الاعتقاد المنحرف أو الاعتقاد

السليم. ومرده إلى شعور الإنسان بنفسه، ووعيه بما ركب فيه من طاقات مختلفة، وطريقة نظرته إلى الحياة.

أما التطور المادي الذي يحدث، والتطور الاقتصادي والتطور العلمي.. فكلها تحدث آثارا مؤقتة في النفس البشرية، ثم لا يلبث التأثير أن يزول وتتلبد عليه النفس، وتعود إلى عادتها ومألوفها وكيانها الداخلي الذي يحكمها.. كما يتعود الجسم على الدواء الجديد فيفقد مفعوله بعد فترة ولا يعود له على الجسم تأثير.

إنما التغير الحقيقي هو الذي يجيء من داخل النفس.. من أفكارها ومشاعرها.. من نظرتها إلى ذاتها ونظرتها إلى ما حولها.. من تحديدها لمهمتها وأهدافها.. من تقديرها لدورها ومركزها.

هذا هو التغير الحق، وليس هو السيارة أو الطائرة أو الحمار!

* * *

إن مقياس الحضارة، ومقياس " التطور "، ليس فيما يصنعه العقل البشري من مصنوعات مادية، وليس فيما يهتدى إليه من " علوم ". ولكن في طريقة تأثره بذلك كله، ومدى ارتفاعه أو انخفاضه في مقياس " الإنسان " الذي يختلف عن مقياس " الحيوان ".

مقياس التقدم أو التأخر بالنسبة للإنسان، هو مدى استخدامه للمزايا التي " تفرد " بها عن الحيوان – وبالتالي هو مدى بعده عن الحيوان وصعوده في المجال الذي تنتجه له مزاياه. ولئن كانت العدد والآلات – كما قال " جوليان هكسلي " – من الخصائص التي تميز بها الإنسان، فإنها – كما قال " هكسلي " كذلك – ليست المزية الوحيدة، وهي ليست منفصلة عن بقية الكيان. ومن ثم لا تصلح – وحدها – مقياسا للحضارة، ولا مقياسا لتقدم الإنسان، ما لم ترتبط بالمزايا الإنسانية الأخرى، وتدفع بها إلى الأمام.

" إن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الراديو أو التليفزيون الذي يملكه، ولا السيارة التي يركبها، ولا جهاز الغسيل الآلي، ولا القنبلة التي يدمر بها الحياة على وجه الأرض.. وإنما هو أثر ذلك كله في مشاعره وعواطفه وكيانه النفسي على وجه العموم. فإذا كان يصل به إلى فكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع، فقد ارتقى الإنسان حقا بكل ذلك. أما إذا كان يضيق مشاعره إلى نطاق الأنانية

المرذولة، ويعكف به على ملذات الجسد الملهوفة فقد انحطت البشرية، رغم هذا البريق الذي يخطف الأبصار " [٢٩] "..

والدليل على ذلك.. الدليل على أن مقياس التقدم البشري ليس هو المادة، وليس هو التقدم العلمي، وليس هو وسائل الإنتاج.. الدليل هو أوربا في القرن العشرين.

أوربا في القرن العشرين قد وصلت إلى ذروة من العلم والقوة المادية وضخامة الإنتاج لم تعرف لها البشرية مثيلا منذ مولدها إلى اليوم..

وأوربا في القرن العشرين قد وصلت إلى مستوى من الهبوط الخلقي والروحي لم تعرف البشرية أسوأ منه في جاهليتها القديمة والحديثة على السواء.

وحين قال " برتراند رسل " الفيلسوف الإنجليزي المعاصر إن سيادة الرجل الأبيض قد انتهت، لم يقل ذلك لأن الرجل الأبيض قد خلا من العلم، أو فرغ من التقدم المادي، أو توقف عن الصعود الدائم في عالم الإنتاج، ولكنه قال ذلك لأن الرجل الأبيض قد فرغ من الداخل. فرغ من العقيدة الصالحة، فرغ من الروح، فرغ من الأخلاق بمعناها الإنساني الواسع لا بمعناها النفعي الضيق الذي يمارسه الغرب في وقته الحاضر.

ولو كان التقدم العلمي، أو الإنتاج المادي، أو غيره من الأشياء الموجودة خارج النفس له الأثر الحاسم في تكييف النفس البشرية، لوجب أن يرتفع الغرب اليوم إلى القمة الإنسانية العليا في كل ميدان من ميادين السلوك البشرية. ولما وجد هذا الوجه الكالح الكريه الذي يطل به الغرب على العالم اليوم: التمييز العنصري، والاستعمار، والانحلال الخلقي، والانحطاط الروحي، والصراع الكريه على التوسع والتملك على حساب الكرامة البشرية، والفزع المدمر الذي يعيش فيه العالم من خوف الحرب والهلاك.

وما أتفه تلك الكذبة الكبيرة التي قالت إن الطائرة اليوم قد قربت أقطار العالم بعضها إلى بعض، ومن ثم أحس الناس بقرب المكان ووحدة الإنسان ووجوب التعاون بين البشرية. أو – كما قالوا – صار العالم أضيق من أن يُتنازع فيه!

ما أتفه هذه الكذبة الكبيرة. أفلا ينظر الناس حولهم وهم يتكلمون؟! السلام هو الذي يسود العالم اليوم بعد أن قربته إلى بعضه الطائرة والصاروخ؟ أم هو النزاع البشع الذي لم يحدث له مثيل في التاريخ؟

---

[٢٩] من كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام ".

إنها المشاعر من الداخل، وليست الطائرة وليست الصواريخ.

ومن ثم كانت العقائد هي أضخم شيء في حياة البشرية. فهي المحرك الذي يحرك النفس من الداخل. هي الموجه إلى شتى صنوف العمل وصنوف السلوك وصنوف الوجدان.

ومن ثم ذهبت في حياة البشرية حضارات مادية كثيرة، واندثرت أو بقيت آثارها صماء جامدة خاوية من الحياة.. وبقيت العقائد. على كل ما أصابها من انحراف وتشوه. بقيت على كل ما لوثتها تصورات بشرية فاسدة.. بقيت هي الملجأ الأخير والضوء المنير في الظلمات.

* * *

والأخلاق كذلك قضية ثابتة.

فالأخلاق – من ناحية – هي التطبيق الواقعي للعقيدة. وهي – من ناحية أخرى – طريقة تعامل الإنسان مع نفسه ومع الناس. وهذه محكومة بروابط أزلية ثابتة لا يغير منها مرور التاريخ: محومة بتكوين الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، وبانبثاق الناس من نفس واحدة خلق منها زوجها وانبث منها هي وزوجها الشعوب والقبائل والأجيال.

تلك مسألة تاريخية لا تتغير مهما تغيرت حوادث التاريخ، فمهما اخترع الإنسان من صواريخ وطائرات وثلاجات وغسالات، ومخ إلكتروني وأجهزة ذرية، فلن يستطيع أن يغير حقيقة وجوده السابقة، وأنه والناس جميعاً من أصل واحد، ومن " نفس " واحدة..

والأخلاق قد انبثقت من هذه الحقيقة. إنها لم تنبثق من المخترعات الإنسانية المتطورة، ولا من البيئة الزراعية أو الصناعية أو الذرية. لم تنبثق من عنصر متغير. وإنما انبثقت من عنصر ثابت هو الكيان الإنساني ذاته، وما ألقاه عليه وجوده الإنساني من تبعات. ومن ثم كان لها أساس ثابت ولو تأثرت مظاهرها بالمتغيرات.

وكما ينحرف الإنسان عن العقيدة السليمة فكذلك ينحرف عن الأخلاق. ولكن هذا ليس معناه – كما يفهم السادة " العلماء" الأفاضل في الغرب – أنه ليس هناك أساس

ثابت للأخلاق! معناه فقط أن الناس ينحرفون عن الأساس الثابت حين تفسد فطرتهم فيضلون سواء السبيل.

بل لنفرض جدلا أن الإنسان لم يسلك سبيل الأخلاق الصيحة إلا فترات نادرة من حياة البشرية. فذلك لا يعني أبداً أن الأخلاق قيمة متغيرة ليس لها أساس ثابت. معناه فقط أن الإنسانية دائمة الانحراف وهي في حاجة دائمة للتقويم.

إن الأمراض الجثمانية دائمة الانتشار في كل عهود التاريخ، ويندر أن يوجد أحد لا يصيبه المرض مرة في حياته أو مرات.. فهل معنى ذلك أنه لا يوجد معيار للصحة ولا قواعد للقياس؟

والأمراض الخلقية كذلك.. إنها دائمة الانتشار في كل عهود التاريخ، ويندر أن يوجد فرد لا يصيبه المرض مرة في حياته أو مرات.. ولكن هذا ليس معناه أنه لا يوجد معيار للصحة النفسية ولا قواعد للقياس...

والمعيار في المسألة واضح.. فالإنسان - كما قال " هكسلي " - إنسان. وهو متفرد متميز عن الحيوان. ومن ثم ينبغي له أن يحقق كيانه الإنساني المتميز، ولا ينحرف إلى حياة الحيوان.

ومن مزايا الإنسان - كما قال " هكسلي " - الضبط والإرادة وحرية الاختار بين الدوافع وعدم الخضوع المطلق لدفعة الغريزة. تلك مزاياه التي ميزته عن الحيوان. فإذا استخدمها فهو إنسان فاضل. إنسان ذو أخلاق. وإن انحرف عنها فهو منحدر إلى أسفل.. وهو خاطئ ولو ظل على خطئه ألف عام، ما دام في كيانه - كما قال العلم - قدرة على تحقيق مزايا الإنسان.

ولكن هذه الحسبة البسيطة قد أعيت العلماء في أوربا وحيرت أفهامهم حين آمنوا بحيوانية الإنسان.. فالحيوان - في الواقع - لا يملك معايير ثابتة، ولا مقياساً للأخلاق!

* * *

والتقاليد قد تختلف قضيتها قليلا.. ولكنه اختلاف في الحقيقة غير كبير.

التقاليد أكثر مرونة من قواعد الأخلاق، لأنها تطبيق سلوكي للفكرة الخلقية. وكثيرا ما تتعدد قوالب السلوك وإن اتحدت القواعد والأهداف. ومن ثم لا تلتزم التقاليد - في ظاهرها - قوالب ثابتة، وتتغير كثيراً على مدار التاريخ.

وتغير التقاليد ليس ضاراً في ذاته، ولا هو مشكل يحتاج إلى حلول.

إنما الذي يضرد دائماً هو خروج التقاليد عن القواعد الخلقية ومقررات العقيدة والإيمان بالله.

يتقدم الشاب لخطبة الفتاة، ثم يدفع المهر مائة سوط يتحملها في صمت، أو مائة بقرة يدفعها لأهلها، أو مائة جنيه، أو تشترك الأسرتان في النفقات.. ويحضر متاعه لنفسه أو تحضره أسرة العروس، أو يتفق العروسان على التعاون معاً في الإعداد.. كل هذه تقاليد تتغير، ولا ضير في أن تتغير.. إنما الضير حين تخرج التقاليد عن فكرة الزواج ذاته، وتنقلب إلى بغاء.. أي لون من البغاء...

وتتولى الأم موضوع الخطبة أو تتولاها الخاطبة، أو يخطب الفتى لنفسه.. كلها تقاليد تتغير، ولا ضير في أن تتغير. إنما الضير حين لا تكون هناك خطبة، بل لقاء للاستمتاع على طريقة الحيوان.

وتتكون الأسرة من الأجداد والآباء والأبناء والأحفاد، كالهرم الذي تتسع قاعدته بلا انتهاء.. أو تقتصر على الزوج والزوجة والأبناء.. وتقيم الحماة في المترل أو تقيم على البعد.. وتتدخل الأم بالنصيحة أو تترك الزوجين يتفاهمان.. كلها تقاليد تتغير، ولا ضير في أن تتغير. وإنما الضير حين تنقطع روابط الأسرة لأسباب عاطفية أو أسباب اقتصادية أو تنظيم تقيمه الدولة.. أو غير ذلك من الأسباب.

فليست التقاليد إذن - على مرونتها - مطلقة من القواعد الثابتة في كيان البشرية: الأخلاق والعقيدة. وإلا فهي انحراف يؤدي إلى نتائجه المحتومة، ولو قبلها العرف، وألفت في تبريرها المؤلفات!!

* * *

تلك قصة التطور في صورتها المعقولة التي يؤيدها الواقع. لا في صورتها المجنونة التي فتنت الناس في أوربا في الفترة الأخيرة.

جوهر ثابت وصور متغيرة.. في الكون والحياة والإنسان سواء. والتغير الدائم الذي لا يلغي القواعد الثابتة، ولا يطلق الإنسان من عقاله، يفسد في الأرض ويرتكس إلى حمأة الحيوانية، ثم يقول إنه يتطور ويتقدم إلى الأمام.

أما " حتمية " التطور فقد كانت فتنة جائحة وما تزال!

وأبرز ما تكون هذه الحتمية في التفسير المادي للتاريخ، الذي يحدد مراحل حتمية التطور، ويقول في صراحة: إنها لا علاقة لها بإرادة الإنسان!

وحتى الذين لا يؤمنون كل الإيمان بالتفسير المادي في أوربا – وهم قلة قليلة – فهم يؤمنون بالحتمية من جانب آخر، جانب ضعف الفرد بمفرده، وعجزه عن أن يقف في وجه المجتمع، وفي وجه التطور " الحتمي " الذي ينشأ من تغير الظروف والأحوال

كلاهما يؤمن بسلبية الإنسان!

وقد كانت " الداروينية " هي السبب المباشر في الإيمان بهذه الحتمية، لأنها رسمت خطاً معيناً للتطور، ثم قالت: إن الكائن الحي لا يملك الإفلات من ضغط التطور عليه، ولا يملك إلا أن يستجيب لظروف البيئة من حوله.. والبيئة هي التي ترسم له الطريق.

ولم يزد التفسير المادي للتاريخ على أن نقل الحتمية إلى مجال الإنسان – كواحد من صنوف الحيوان – وطبقها على كل ألوان نشاطه الفردي والاجتماعي، وقال إنه وحده هو التفسير العلمي الصحيح!

وهكذا نجد هنا أيضاً أن المسألة نابعة في النهاية من حيوانية الإنسان!

وكان يكفي أن نعود إلى كلام " جوليان هكسلي " لنرد به على مزاعم التفسير المادي للتاريخ حيث يقول في الحديث عن تفرد الإنسان: " وأخيراً فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره " أو يقول: " وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية، وهي تفرد تاريخ تطوره " أو يقول: " أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حراً نسبياً – حراً في الأخذ والعطاء على حد سواء.. " أو يقول: " ولكن الإنسان تطور بصورة مكنته من التخلص من بعض الأنواع المنافسة، ومن استعباد أنواع أخرى بالاستئناس، ومن تعديل الأحوال الطبيعية والبيولوجية في معظم أجزاء اليابس من الكرة الأرضية ".

أي.. أن الإنسان قوة فعالة موجبة، وليس بالقوة السالبة..

كان يكفي أن نعود إلى هذه الأقوال لنرد على القائلين بحتمية التطور البشري، تلك الحتمية التي تقول بصراحة: إن الإنسان لا يملك التصرف. ولا إرادة له فيما يحل به من أحداث!

ولكننا لن نكتفي بذلك.. وسنمضي خطوة أخرى في الطريق.

التفسير المادي للتاريخ وحتمية التطور.. حقيقة! حقيقة لها رصيد من الواقع البشري في تاريخه الطويل! ولكنها حقيقة في حالة واحدة. حين " يختار " الإنسان أن يلغي كيانه، ويترك نفسه للأحداث! حينئذ لا يكون قوة إيجابية، ولا يكون له وزن ولا حساب. وحينئذ يكون كمية سالبة يتصرف في أمره كل شيء، ولا يتصرف هو في شيء من الأشياء!

وذلك يحدث في بعض الأحيان! وقد حدث في أوربا في القرنين الأخيرين فلم تقاوم موجة واحدة من موجات الفساد، بل تركت نفسها للوج، فغرق الرجل الأبيض في نهاية المطاف!

ولكنه الغرور الأوربي وحده هو الذي يفسر تاريخ البشر كله بما حدث في أوربا في قرن ونصف قرن، في فترة منتكسة كل ما حدث فيها أن أوربا خرجت آبقة من سلطان الكنيسة الجائر، فأسلمت نفسها للشيطان!

وإلا فسننتقل إلى موقع آخر من الأرض، وموقع آخر من التاريخ.

سننتقل إلى صدر الإسلام.

أية قوة مادية.. أية تغيرات في أساليب الإنتاج.. في الجزيرة العربية أو في العالم أجمع.. هي التي أدت – بصورة حتمية – إلى ظهور محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – يدعو إلى هذا الإسلام ويبشر بالدين الجديد؟

يقولون إن العرب في الجزيرة العربية كانوا قد استنفدوا طور " القبيلة " وأخذوا يتطلعون لأن يكونوا أمة.. فكان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أمراً طبيعياً متمشياً مع طبيعة الأحداث، ومستجيباً لحتمية التطور

ومع ما في هذا القول من التجوز فسنسلم به توفيراً للجدال!

من قبيلة إلى أمة.. معقول!

ولكن هل كان الإسلام دين " الأمة العربية "!؟

كيف وهو يقول – في مكة – قبل الذهاب إلى المدينة، وقبل تأسيس الدولة، وقبل اجتماع الأنصار، وقبل تجميع القوى المادية والقدرة التنفيذية.. بل قبل أن يؤمن به أحد إلا بضعة نفر مشردين في الشعاب، ومطاردين من الأهل والخلان، هائمين بغير مستقر ولا حماية ولا أمل في الغد القريب فضلا عن الغد البعيد.. كيف وهو يقول في هذه الظروف كلها عن القرآن الكريم: " وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ " في سورة " القلم " من أوائل ما نزل من القرآن الكريم. وفي سورة سبأ المكية ما هو أصرح في هذا المعنى. ذلك قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ". وكذلك آية الأعراف المكية: " قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً "؟

ثم هل كان الإسلام دين " الأمة العربية " ونبي الإسلام يقول: " الناس سواسية كأسنان المشط. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "؟

أهي دعوة لتكوين أمة، أم دعوة إلى " الإنسانية " عامة من أول خطوة في الطريق؟!

فهل كذلك الحتمية التاريخية يا هواة التفسير المادي للتاريخ؟ من القبلية إلى الإنسانية قفزة في سنوات؟!

وتتكون الأمم من القبائل.. فهل مجرد هذه الخطوة يعدل النظم الفكرية والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية.. بدون تغير مادي، ولا تحول في أساليب الإنتاج؟

منطق البيئة لم يكن هو المنطق الذي أتى به الإسلام.. بل لقد قام الصراع طويلا – جداً – بين منطق البيئة ومنطق الإسلام، حتى تغلبت العقيدة الجديدة بما فيها من قوة ومن عناصر خير غلابة، فقهرت منطق البيئة وأجلته من النفوس.

كان منطق البيئة يحتقر المرأة ويضعها في مكانة تشبه مكانة السائمة والحيوان. توأد أحياناً وهي وليدة. وتستقبل بالابتئاس والغيظ.. وتذل وهي فتاة. و " تُمتلك " وهي زوجة كما تمتلك الأشياء. ولم تكن المرأة ذاتها تسخط على هذا الوضع، ولا كان هناك من يطلب لها وضعاً غيره من الرجال. لا في الجزيرة العربية، ولا في أي مكان في الأرض.

وجاء الإسلام يقول: " مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً " " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ".

وجاء يقول: " وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ " ويجعل لهذا المعروف قواعد وتشريعات وتوجيهات.

وجاء يعطيها – إلى جانب المساواة في الإنسانية، والمساواة عند الله – حق الملك والتصرف: " للرِّجَال نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوَالدَان وَالْأَقْرَبُونَ وَللنِّسَاء نَصيبٌ ممَّا تَرَكَ الْوَالدَان وَالْأَقْرَبُونَ " " للرِّجَال نَصِيبٌ ممَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ " وهو حق لم تعطه فرنسا لنسائها إلا في القرن العشرين.

وكان منطق البيئة هو منطق الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق، ولم يكن تحول العرب إلى أمة – بطريقة حتمية – ليغير هذا المنطق، فكم من أمة يسود فيها هذا المنطق إلى هذه اللحظة في القرن العشرين!

فجاء الإسلام يعطي كل ذي حق حقه، بإنسانيته المجردة، لا بكونه صاحب قوة أو نفوذ وسلطان، حتى ولو لم يكن مسلماً، ما دام يعيش في المجتمع الإسلامي. وقد نزلت تسع آيات في سورة النساء لتبرئ يهودياً اتهم ظلماً، وتآمر على اتهامه رجال من المدينة أقوياء بعصبيتهم ولا ولي له ولا نصير [٣٠].

وكان منطق البيئة هو توقير زعيم القبيلة – أو الملك حين تتكون الأمة – توقيراً يجعل منه إلاهاً لا يسأل عما يفعل. وكان هذا هو منطق العالم كله مع حكامه في ذلك الحين، فإذا الإسلام يجعل في هذه الأمة من الوعي السياسي البالغ القمة ما يجعل فرداً من عامة المسلمين يقول لأشد الخلفاء مهابة في تاريخ الإسلام – عمر بن الخطاب —: " والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف "! ثم يجعل عمر لا يغضب لنفسه من هذه القولة الجريئة. بل يحمد الله!

وكان منطق البيئة يجعل الكرم العربي الشهير قاصراً على الحفاوة التي يسير بذكرها الركبان، وتصلح للمفاخرة بين القبائل، أما العطف على الفقير والمسكين، العطف الذي ينبع من منبع إنساني بحت، ولا يهدف إلى شهوة ولا فخر ولا تظاهر فقد كان أمراً

---

[٣٠] سورة النساء (١٠٥ – ١١٣) ومما جاء فيها: " وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً " إشارة إلى ذلك اليهودي البريء!

نادراً في تلك البيئة قبل الحدوث! فجاء الإسلام يلح إلحاحاً شديداً جداً في إعطاء المسكين " حقه " في مال الله، وإكرامه، والعطف عليه، ومواساته، حتى ليجعل ذلك أمراً للرسول ذاته صلى الله عليه وسلم، وما كان في حاجة قط إلى هذا الأمر: " فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ". وإنما كان توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم للإشعار بأهميته وبأنه واجب القضاء.

وكان منطق البيئة – ومنطق العالم كله يومئذ – يجعل السادة والعبد في منزلة تقرب من منزلة الحيوان، يهان ويعذب ويقتل بلا حساب.

وجاء الإسلام يزوج بنت عمة رسول الله – القرشية – من زيد.. من أحد الموالي، وجاء يدعل هذا المولى قائداً لجيش من جنوده أبو بكر وعمر وزيرا الرسول وخليفتاه!

ويقول الرسول الكريم: " من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه ".. ولم يكن ذلك لأن أحداً طالب لهم بهذه الكرامة.. ولم يكن كذلك لأن الوضع الاقتصادي أو علاقات الإنتاج أو أدوات الإنتاج تغيرت أدنى تغيير!

وكان منطق البيئة يؤمن بالملكية الفردية المطلقة من كل قيد، الخاضعة لغير قانون.

وجاء الإسلام ينظم هذه الملكية بنظام لم يثب العالم إلى شيء منه إلا في هذا العصر، بعد أن اكتوى بجحيم الإقطاع والرأسمالية وتجرع منهما الجحيم. جاء يقول إن المال مال الله والجماعة وكيلة عنه. والفرد موظف فيه، يستحقه بأداء حقه وحسن القيام عليه. فإن سفه أو لم يؤد حقه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه. ثم ينص على طريقة توزيعه " كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ".

وكان منطق البيئة وكان.. وكان.. فجاء الإسلام يلغي ذلك المنطق ويستبل به منطقاً آخر بعيداً كل البعد، غريباً كل الغرابة على تلك البيئة وعلى كل البيئات يوم كان، ولا يجعل كلامه مبادئ " مثالية " معلقة في الفضاء، بل واقعاً محسوساً يتمثل في بشر يدبون على الأرض وقلبهم متجه إلى السماء!

فكيف حدث ذلك؟

أية حتمية تاريخية وأي تفسير مادي يمكن أن يفسر هذه العجيبة في تاريخ الإنسان؟!

شيء واحد يمكن أن يفسر.

إن الإنسان حين يؤمن بالله إيمانا صحيحا وتعمر قلبه عقيدة سليمة.. يصنع هذه المعجزات!

الإنسان أكبر قوة على الأرض حين يؤمن بالله. إنه حينئذ يصبح طاقة موجهة. يصبح القوة الفعالة المريدة على وجه الأرض – بإذن الله – لأنه خليفة الله.

والله يقول للناس: " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ".

فهو – سبحانه – سخرها للناس. وهي إذن مسخرة لهم بإذنه. مسخرة لهم. أي أنهم هم القوة الفعالة التي تملك التصرف. وليسوا هم الكمية السالبة التي يتصفر في أمرها كل شيء ولا تتصرف هي في شيء من الأشياء!

ذلك هو الوضع الحق للإنسان. ذلك هو مكانه اللائق. المكان اللائق بخليفة الله في الأرض.

وحين يثوب الإنسان إلى رشده ويتعرف مكانه الحق، لا يعود خاضعا للمؤثرات يتأثر بها دائما ولا يؤثر. وإنما يصبح قوة إيجابية تتفاعل – على الأقل – مع القوى المادية، إن لم نقل تتغلب عليها وتسخرها.

وليست القوى المادية وحدها هي التي يوجه الإسلام الإنسان إلى سلبيتها منه وإيجابيته بالنسبة إليها.

وإنما هي كذلك الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية.. وكل نشاط البشرية.

" إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ".

هكذا شاءت إرادة الله، كرما منه وفضلا، أن يكون البشر هم أدوات العمل في الأرض، وهم كذلك أدوات التغيير. الإنسان هو الذي يعمل. والإنسان هو الذي ينتج. والإنسان هو الذي ينشئ النظم ويقيم الأوضاع. والإنسان كذلك هو الذي يغير الواقع.. والتغيير هو إرادة الله. ولن يعجز الله سبحانه أن يغير ما بالقوم دون أن يغيروا ما بأنفسهم. فالسماوات والأرض ومن فيهن ملكه. وهو القاهر فوق عباده. وهو المتصرف وحده في

الجميع بما يشاء وكيفما يشاء... ولكنه هكذا شاء.. أن يكون الإنسان عضوا إيجابيا في الحياة، وأن يكون التغيير مرتبطا بإرادة الإنسان، مقضيا عن طريقه، نافذا من خلاله، ممتزجا بكيانه كله من عمل وفكر وشعور.

أي إكرام أجل من هذا الإكرام؟

ومع ذلك يخنس الإنسان ويرتكس، ويضع نفسه مكان الحيوان والجماد، ويترك نفسه للأحداث تسيره ولا يرسم هو طريق الأحداث.

كلا! إنه يصنع ذلك حين لا يؤمن بالله، ومن ثم لا يعرف حقيقة نفسه ولا يؤمن بها.

أما حين يؤمن بالله ويؤمن بنفسه فلن تلحقه حتمية التطور، ولن يخضع للتفسير المادي للتاريخ، ولا لأي تفسير غير التفسير الإنساني الكامل، الذي يضع الإنسان في موقف الموجه الفاعل المريد.

ولو آمنت أوربا بالله، وآمنت بإنسانية الإنسان، لما تركت الأحداث تسير فيها على النحو الذي سارت به، ولكان لها رأي آخر ووجهة أخرى، ولوجدت في نفسها القدرة على أن تقف في طريق النكسة " الحتمية " التي أصابت أخلاقها وحلت مجتمعها، ولما كانت الثورة الصناعية أو الحرب أو غيرها من الأحداث بقادرة على تفكيك أوصالها بتلك الصورة العنيفة التي جرّت عليها وعلى العالم الخراب.

* * *

ومهما يكن من أمر.. فقد كانت تلك هي القصة التي انتهت بانهيار الأخلاق والتقاليد. وتلك هي " الوقائع " التي تفسر على الأقل – وإن لم تكن تبرر – ذلك الانهيار.

أما نحن؟ أما نحن فما بالنا؟ ماذا حدث في حياتنا من " وقائع " تبرر الانهيار الذي نعانيه أو تفسره على أقل تقدير؟ ماذا غير العبودية التي اندست في نفوسنا للغرب المستعمر الذي جاء ليهدم ديننا وأخلاقنا وتقاليدنا، ليستمتع هو بالسيادة والسلطان؟

هل من سبب آخر حقيقي يؤدى لكل ما نحن فيه من رخاوة وانحلال وتميع وانحدار؟

هل من سبب آخر.. فلنكن صرحاء!

فلنكن صرحاء!

فلنكن صرحاء!

فلنصارح أنفسنا بحقيقة موقفنا من الدين والأخلاق والتقاليد.. لماذا نتهرب من الواقع وندفن رءوسنا في الرمال؟. لماذا نضلل أنفسنا ونتعلق بالأكاذيب؟

أو.. لماذا نكذب عامدين ونضلل الآخرين؟

فلنكن صرحاء!

*   *   *

هل هناك أسباب " "موضوعية " للانحلال الخلقي الذي نمارسه اليوم.. أو.. إذا استخدمنا التعبير المقابل: هل هناك أسباب موضوعية " للتحرر " والانفلات من القيود؟

لقد انحلت أوربا لأسباب كثيرة بيناها من قبل.. وهي لا تبرر الانحلال، ولا تعطيه صفة الشرعية، ولا تقلل من جريمة الهبوط الحيواني الذي تمارسه أوربا اليوم. ولكنها فقط " تفسر " لما حدث ذلك الانحلال.

فلماذا انحللنا نحن؟

ما هي " الوقائع " التي أدت بنا للانحلال؟

هل كانت لنا كنيسة تطاردنا في يقظتنا ومنامنا بالإتاوات الثقيلة، والخضوع المذل لرجال الدين، وتحرم على أفكارنا أن تفكر في كروية الأرض، أو مركز الإنسان في الكون، و العدالة الاجتماعية، أو النظم السياسية، أو نشتغل بالعلوم العملية من طب وفلك وطبيعة وكيمياء ونبات وحيوان، أو نسعى في فجاج الأرض طلباً للرزق؟

هل كانت لنا أفكار دينية ترفض فكرة التطور في الكون والحياة والإنسان.. فلما صدمتنا فكرة التطور العلمية ألقينا بالدين جانباً وانطلقنا " نتطور " مع تطور العلم؟

هل قامت في تاريخنا الديني كله عداوة بين الدين والعلم كالتي قامت في أوربا، أو قام النفور في وجداننا الباطني بين الإنسان والله، كما قام في الوجدان الأوربي في أسطورة " بروميثيوس " سارق النار؟ [٣١].

وإذا آمنت أوربا لأي سبب من الأسباب بحيوانية الإنسان فهل يستطيع الشرق بروحانيته الأصيلة وعقائده العريقة وأصالته في ميدان الإنسانية، أصالة ترجع إلى عشرات الألوف من السنين، منذ أن أشرقت عليه الحنيفية الأولى، دين إبراهيم.. هل يستطيع الشرق في يوم من الأيام أن يؤمن حقاً – في أي فترة من عمره – بحيوانية الإنسان؟

وإذا كانت أوربا قد انتقلت من الفلسفة المثالية المحلقة في الفضاء أو الدائرة في الخواء، إلى فلسفة مادية بحتة لا تؤمن إلا بما تدركه الحواس، كرد فعل منطقي مع الأحداث القائمة هناك، كرد فعل للأوضاع الأرضية الفاسدة التي تركتها الفلسفة المثالية تتعفن وتنتن ويعج فيها الدود، وهي في برجها العاجي تبحث في ما وراء المادة وما وراء الطبيعة.. فهل حدث في التاريخ الإسلامي ذلك التقابل العدائي بين المثالي والمادي، بين الروحي والجسمي، بين المنظور وغير المنظور؟ أم امتزج هذان العنصران في الفكرة الإسلامية منذ البداية، فعاش الناس في الأرض وقلوبهم متجهة إلى السماء، يعملون ويجاهدون ويعمرون ويتعلمون ويستنبطون ويأكلون ويتزوجون ويقضون كل مطالب الأرض في ثبات وتمكن، وقلوبهم في الوقت ذاته معلقة بالله متطلعة إلى رضاه، يعملون حساب الآخرة ولا ينسون نصيبهم من الأرض؟

هل حدث في حياتنا أن قامت المصانع تكايد العمال الثائرين على الظلم بتشغيل النساء بدلا منهم، ثم أعطت النساء نصف أجور الرجال كما حدث في أوربا، فقامت المرأة تطالب بالمساواة في الأجور؟ وهل حدث في تاريخنا كله أن أعطينا المرأة – لأنها امرأة – نصف ما تستحقه من أجر على الكدح والعمل في المصنع أو المتجر أو الحقول [٣٢]؟ هل حدث في تاريخنا القديم أو الحديث أن أعطينا المدرسات مثلا راتبا أقل من راتب

---

[٣١] هي أسطورة يونانية قديمة تمثل الصراع بين البشر والآلهة على النار المقدسة أو " المعرفة ". البشر سرقوا النار المقدسة فعاقبتهم الآلهة على ذلك عقاباً أليما. وعلى الرغم من أنها أسطورة وثنية فقد تغلغلت في اللاشعور الأوربي تغلغلا عميقا وكيفت شعورهم الحقيقي بالله، فأصبحت علاقة نفور وصدام لا علاقة حب ومودة.

[٣٢] تأخذ المرأة نصف نصيب الرجل في الميراث فقط، وهو مال لم تتعب فيه المرأة، وحكمة التوزيع فيه أن الرجل يكلف من هذا الميراث بالإنفاق على أسرة ولا تكلف المرأة بذلك. أما الأجر على العمل فلا علاقة له بهذه القاعدة الخاصة بالميراث وحده.

المدرسين كما تصنع انجلترا إلى هذه اللحظة، بحجة أن المرأة تأخذ إجازة حمل وولادة وإرضاع بينما الرجل لا يأخذ مثل هذه الإجازة؟ وهل وقفت مثل هذه الاعتبارات الخسيسة في وجه الاعتبارات الإنسانية الخالصة التي يفيض بها حس الشرق دائماً في مثل هذه الشئون؟

هل حدثت عندنا حرب مدمرة أفنت الملايين من الشبان. ثم قام ديننا يمنع زواج الأحياء من الرجال بأكثر من واحدة، فلم تجد الفتيات نصيبهن النظيف من الحماية والرعاية والضرورة الجنسية، ففسدن واقعات تحت هذه الضرورة؟

هل حدث عندنا انتقال مفاجئ من الزراعة إلى الصناعة، أخذ العمال أخذاً من الريف إلى المدينة دون أن يترك لهم فرصة التروي ونقل الأسر واستقرار الأوضاع، فنشأ من ذلك فساد الشبان في المدينة وفساد الفتيات؟

أما ماذا؟!

ما الذي حدث من ذلك كله في تاريخنا الطويل لكي يؤدي تأدية " منطقية " إلى التفكك والانحلال؟

هل حدث شيء؟ هل حدث شيء غير الاستعمار الأوربي للشرق.. الاستعمار الذي لم يستعمر الأرض بجنوده فحسب. وإنما استعمر كذلك القلوب والأرواح، والمشاعر والأفكار؟

فلنكن صرحاء.. ولنقل إننا نقلد الغرب المستمر تقليد العبيد أو تقليد القرود.

* * *

هل لدينا – نحن الشعب، والكتاب والمفكرين – فكرة واضحة عن المجتمع الذي نريده؟ أفكاره ومشاعره وأخلاقه وتقاليده؟ هل لدينا فكرة واضحة عن أي التقاليد ينبغي أن يبقى وأيها ينبغي أن يزول..؟

هل لدينا فكرة عن الصورة التي نريد عليها شبابنا وفتياتنا؟ إلى أي مدى يذهبون في " تحررهم " وأي ضابط يمسكهم؟ أو لا ضوابط على الإطلاق؟.

هل تذهب الفتاة كل مذهب؟ هل تتخذ لها صديقا؟ هل " تخطر " الأسرة بذلك الصديق؟ أم تتخذ ذلك في السر؟ وهل تغضب الأسرة حين تعلم؟ أم تتغاضى كأنها لا تعرف؟ أم تنبسط أساريرها وترحب بالصديق؟

هل تخرج الفتاة مع خطيبها منفردين إلى السينما والمسرح والحديقة الخلوية. أو حيث لا يعلم أحد؟ أو يكون معهما واحد من الأسرة؟ وما مهمة هذا الواحد على وجه التحديد؟

هل تخرج بالفستان الذي يروقها هي؟ تختار قماشه بنفسها وتختار تفصيله كما تشاء، عارية الصدر أو عارية الظهر أو عارية السيقان؟ أم الأسرة هي التي تشرف أم هي التي تختار؟

وهل تُسأل وهي خارجة: إلى أين تذهب؟ أم ذلك من خصوصياتها التي لا يجوز للأسرة التدخل فيها؟ وهل تُراقب عن بعد أو عن كثب أم يترك لها القياد؟

وهل تُسأل إذا عادت متأخرة: أين كانت؟ أم ذلك حقها وهي حرة فيه؟

وهل إذا قالت: كنت أذاكر مع زميلتي، يؤخذ ذلك قضية مسلمة أم يناقش؟ وبأي أسلوب يكون النقاش؟ بالمداراة والتحايل؟ أم بالتفاهم الصريح؟ أم بالتهديد بسلطة الأسرة وسلطة العقوبة؟

وإلى أي مدى تتعلم – إذا كانت الظروف الاقتصادية لا تقف في الطريق – أي نوع من التعليم؟

وما الهدف من التعليم؟ الوظيفة لمجرد الوظيفة؟ أم الوظيفة للحصول على زوج؟ أم الوظيفة للشعور بالحرية؟

وفي الجانب الآخر: هل يذهب الفتى كل مذهب؟ هل يتخذ له صديقة يقضي معها مطالب الجنس كلها أو بعضها حسب التساهيل؟ وهل يكون ذلك علنا أمام الأسرة وأمام الجميع؟ أم يكون خلسة في السر؟ وما موقف الأسرة حين تعرف؟ وأي نوع يتلقاه عندئذ من التوجيه؟ أو لا توجيه على الإطلاق؟

وما موق الفتى في الأسرة من أبيه؟ هل يحترمه بمعنى إطاعة أوامره، أم يحترمه على أساس " الزمالة " المطلقة في كل أمر؟ أم لا يحترمه؟ أم يكون موقفه منه موقف الحياد لا إهانة ولا إكرام؟

وهل يخطب الفتى لنفسه أم يخطب بالوساطة؟

ومن يتزوج؟ يتزوج فتاة عرفها في الطريق أو في السينما أو في المتره؟ أم فتاة تزامله في العمل أو تزامله في الدراسة؟ أم فتاة لا يعرفها على الإطلاق؟

وما شروطه في الزوجة؟ وكيف يعرف أنها تشتمل على شروطه؟ هل يصاحبها ويصادقها ويقضي معها ما يقضي فإذا ارتضاها تقدم لخطبتها؟ أم يصاحبها فقط، مصاحبة " بريئة "؟ وما مدى البراءة؟ هل القبلة والضمة داخلة في حيز البراءة أم في حيز الفساد؟ وما موقفه حين يعرف أنها - قبل أن تتخصص له في الصداقة - كانت تصادق هذا وتصادق ذاك، وتقضي معه ما تقضي الآن معه؟ هل يأخذ ذلك على أنه الأمر الواقع، أم يخفي رأسه في الرمال، أم ينفعل ويثور؟ وكيف يختبر " حبها " له؟ هل يعتبرها محبة حين تمنحه نفسها أم حين تمتنع عليه؟ وما مدى مراودته لها وهو يعزم أن تكون له زوجة؟ وما رأيه فيها حين تستجيب؟

وبعد أن يتزوج؟ ما الشأن في القدامى من الأصدقاء والصديقات؟ هل يمتنع عن صديقاته ويمنعها عن أصدقائها؟ أم يمنعها وهو لا يمتنع؟ أو يلتقيان بهم - معاً - في المجتمعات؟

وهل تستقبل أصدقاء زوجها في المترل؟ تستقبلهم في حضرته وغيبته؟ أم في حضرته فقط؟ وما الضمان؟

هذا ومئات من أمثاله وألوف.. هل لدينا - نحن الشعب والكتاب والمفكرين - فكرة واضحة عنه وهدف مرسوم؟ أم نترك الأمر " بالبركة " وحسبما تؤدى به الظروف؟

فلنكن صرحاء.. ولنقل إننا لم نتخذ بعد فكرة واضحة، وإننا نعيش بلا هدف مرسوم.

* * *

هل نحن شعب محافظ؟ أم نحن شعب متحرر؟ أم ليس هذا ولا ذاك؟

هل هناك قطاع واحد في المجتمع – أي قطاع – له تقاليد واضحة وصورة محددة؟ الريف أو المدينة. العامل أو الموظف. الموظف الصغير أو الموظف الكبير. الفتاة المتعلمة أو الفتاة الجاهلة. الموظفة أو غير الموظفة. المتزوجة أو العزباء. المتعلم في " أوربا " أو المتعلم في مصر. المثقف ثقافة " غربية " أو ثقافة شرقية؟

هل لأي قطاع من هؤلاء صورة واحدة تميزه بطابع معين؟

أما القطاع الواحد فيه من كل صنف: المعتدل والمتزمت والمتحلل من القيود؟

ومن الناحية الأخرى: إذا أخذنا أي نوع من التقاليد: التزمت أو الاعتدال أو التحلل، فهل يشمل قطاعا اجتماعياً معيناً؟ أم يتناثر في قطاعات المجتمع على غير اهتداء؟

إذا أخذنا مثلا خروج الفتاة وحدها بلا رقابة.. فهل يحدث ذلك بصفة غالبة في قطاع معين من قطاعات المجتمع؟ في " المثقفين " مثلا؟ أو في سكان العاصمة؟ أو في الأسر التي تعلم فتياها في الجامعة؟ أو في أسر " الذوات "؟ أو في محيط العمال..؟

أم نجد هذا التقليد في كل طبقة وفي كل فصيلة وفي كل قطاع؟

وإذا أخذنا الفتاة المحافظة التي لا تكلم الأغراب ولا تختلط بالرجال فهل نجدها بصفة غالبة في " بنت البلد "؟ أو الأسر ذات الثقافة الدينية؟ أو في " الطبقة المتوسطة " أو أي قطاع من الناس؟ أم نجدها متناثرة هنا وهناك على غير أساس مفهوم؟

وإذا أخذنا الأب الذي يحافظ على بناته.. أو الأب الذي يعرضهن في السوق.. أو الأب الذي لا دخل له في شيء.. فهل نجده في قطاع معين، أم نجده موزعا بلا نظام؟

فلنكن صرحاء.. ولنقل إننا في هذا الأمر لسنا " شعباً " وإنما حالات فردية متناثرة ولا تتكون منها وحدة ولا طابع مميز ولا اتجاه مفهوم.

* * *

الفتاة التي تذهب إلى البحر عارية إلا من المايوه، تكشف في حركاها المتقصعة كل ما استتر وتثير كل ما يمكن أن يثور.. تقول إنها تذهب للرياضة! " يا ناس "! هل

تصل بكم القسوة أو الأنانية إلى حد حرمانها من حقها الطبيعي في الرياضة؟ هل البحر لكم أنتم وحدكم أيها الرجال؟ هل خلقت الطبيعة لاستمتاع الرجل وحده؟ وهل الرياضة في ذاتها حرام أيها الناس؟

كلا! من حقها أن تمارس الرياضة. من حقها أن تذهب إلى البحر. من حقها أن تسبح فيه.. عارية إلا من المايوه. وتأخذ حمام شمس بعد ذلك على الرمال.

أليس هذا مقصدها؟ أم شيء آخر؟

سنتيح لها هذه الرياضة، وكل رياضة..

سنجعل حماماً خاصاً للرجال، وحماماً خاصاً للسيدات.

الله! ماذا جرى؟ ولماذا تثور هذه الفتاة؟ وتثور معها ألف فتاة؟

ألم تكن تطلب الرياضة، فأتحنا لها الرياضة؟

فلنكن صرحاء.. إنها لا تريد الرياضة في ذاتها، أو لا تريد الرياضة الخالصة، إنما تريد الاستعراض، والتلذذ بالاستعراض، وإثارة الشهوات في الشباب.

* * *

الفتاة التي تلبس فستاناً عاري الصدر عاري الإبطين " جابونيز " وتسير في الطريق أو تجلس في السيارة أو تجلس في " الكازينو " وسط الرجال والشبان.. تقول إنها تمارس " حريتها " في انتقاء ما تريد من الملابس. إنها فتاة متحررة، تحقق كيانها المتحرر. ما لكم بها أيها الناس؟ من أنتم بالنسبة إليها؟ ما دخلكم في شئونها؟ ما علاقتكم بها وما وصايتكم عليها؟ إنها حرة في نفسها تصنع بها ما تشاء.. هل تحجرون على حرية المرأة؟ هل تلغون كيانها المستقل؟ هل تستعبدونها؟ هل تجعلونها تابعة للرجل تلبس ما يفرضه عليها ولا تختار لنفسها ما تريد؟

كلا. لا نستعبد المرأة ولا نلحقها بالرجل تابعة له.

لها كيانها " المتحرر ".

ولكن.. هل الحرية حقاً هي مقصد الفتاة؟ هل هي " قضية " نفسية وروحية وفكرية تؤمن بها وتحققها؟

فلننظر...

هذا الشاب الذي أثار صدرها العاري نزوة الحيوان فيه.. الذي يحملق كالمسعور في ما بدا وما استتر.. الذي يلتهمها التهاما بعينيه المنهومتين.. أو ليست تراه؟ وما رأيها فيه؟ وما رأيها في نظراته وإن أبدت في الظاهر الاستياء؟ أما عملت حسابه؟ أما عملت حساب أن صدرها العاري وحركتها المثيرة ونظرتها الخليعة تثير فيه كوامن الحيوان؟ أو ليست متأكدة من ذلك تأكد اليقين، منذ اللحظة التي اختارت فيها الفستان، ومنذ اللحظة التي لبسته فيها عند الخروج؟ ما رأيها فيه؟ هل لبست الفستان " لنفسها "؟ أم لهذا الفتى المنهوم – أي فتى منهوم، تقع عيناه على هذا المنظر المثير؟ ولماذا؟ لماذا عملت حسابه وهي تلبس، وعملت حسابه وهي تجلس قبالته تنتظر اللحظة التي تقع عيناه عليها؟ هل عملت حسابه لأنها متحررة؟ أم لأنها مستعبدة من الداخل لدفعة الجنس، مستعبدة للحيوان الذي فيها والحيوان الذي فيه؟

فلنكن صرحاء.. إنها لا تمارس " التحرر " وإنما تمارس العبودية الكاملة لدفعة الحيوان.

* * *

الصحفي الذي يشغل الفتيات في صحيفته.. يقول: إنه يعمل على " تحرير " المرأة. يساعدها في أن " تقتحم " كل ميدان للعمل وتثبت كفايتها وتحقق شخصيتها. يقول إن المرأة أثبتت أنها أكفأ من الرجل وأقدر على القيام بمهامه. يقول: إنها أصبر على العمل وأكثر إخلاصاً له.. يقول ويقول..

أو حقاً يعمل على تحرير المرأة وإثبات كفايتها؟

أم يتخذها " مصيدة " للعمل الصحفي الذي يؤديه؟ يرسلها لاقتناص الأخبار وهو يعلم علم اليقين أن حركة مائعة من هنا وبسمة مثيرة من هناك تفتح مغاليق الأفواه وتستخرج مكنون الصدور. أو يبقيها في المكاتب فيتحلق حولها الشبان " ويخلصوا " في العمل للصحيفة ليستمتعوا بصحبة الفتاة؟

أيدرك ذلك صاحب الجريدة الذي يشغل الفتيات أم تراه غافلا عن الإدراك؟

فلنكن صرحاء.. إنها تجارة كتجارة الرقيق الأبيض تتم وراء الجدران وخارج الجدران.

* * *

الكتاب الذين يدعون إلى " التحرر ".. والشبان الذين يتحمسون للكتاب.

أمخلصون هم في دعوة التحرير؟ هل أوجعهم حقاً تخلف المرأة وعبوديتها؟ هل سالت ضمائرهم رقة على المعذبات في الأرض وفاضت أعينهم بالدموع؟

هل يريدون حقاً أن تشعر المرأة بشخصيتها وتحقق كيانها؟

أيريد كل منهم حقاً أن تكون له زوجة " متحررة " من أولئك اللاتي يرسمهن في خياله وهو يدعو. زوجة تناقش الرجل الحساب وتشعره أنها سَوَّيتهُ، لا يبرم أمراً إلا إذا رضيت عنه.. زوجة تخرج حين تريد وتعود حين تريد، وتختلط بالرجال في كل صعيد؟

أم يضيق بهذه الزوجة ويلعن اليوم الذي " تحررت " فيه... ومع ذلك يدعو..

أمخلص هو في الدعاء؟ أم وراءه " دوافع "؟

أيريد تحرير المرأة لتتحرر حقاً.. أم لتصبح سهلة التناول في المتجر والمصنع والمكتب والطريق؟ للحصول على شهوات ميسرة لا تقف في طريقها العوائق ولا تحول دونها " التقاليد "؟

فلنكن صرحاء.. إنها شهوة الحصول على المرأة وليست الرغبة في التحرير.

* * *

الفتاة التي تذهب إلى الجامعة وقد تزينت كالراقصة وتخلعت كالـــ..

تقول: إنها تريد العلم..

كذلك؟..!

العلم يتطلب هذه الملابس؟ العلم يتطلب هذه الحركات؟

العلم يتطلب الضحكة المثيرة والغمزة المشحونة بالإغراء؟

العلم يتطلب الأظافر المصبوغة وأحمر الشفاه؟

العلم يتطلب الجلوس مع الطلبة في " البوفيه " فيما بين المحاضرات أو " تزويغاً " من المحاضرات؟

العلم يتطلب المواعيد الخلوية بحجة الاستذكار.. ولا استذكار؟

العلم يتطلب معاكسة الأستاذ ولفت نظر المعيد؟

العلم يتطلب تحويل الجامعة إلى مرقص ومسرح وكرنفال؟

وهل هذه الفتاة حين خرجت من مترلها كان في بالها العلم؟ أم ذهبت إلى الجامعة " لتصطاد "؟

فلنكن صرحاء...

* * *

الجامعات اليوم صارت أبعاً.. منها اثنتان في القاهرة.

وحين طلبت بعض الفتيات " المتأخرات " اللواتي يذهبن إلى الجامعة للعلم، وتغثى نفوسهن من القذارة الروحية والفكرية التي يمارسها الطلبة والطالبات الذين لا هم لهم غير الصيد.. صيد الحيوان.. حين طلبت هؤلاء الفتيات أن تخصص لهن جامعة، يتعلمن فيها كل العلوم بمعزل عن الفساد، ثارت ثائرة الصحافة " التحررية ".. وقال قائلها: من أين نجيء بالمعامل ومن أين نجيء بالأدوات؟ بل من أي نجيء بالأساتذة والمدرسين ونحن في أزمة من كل هؤلاء؟

اليوم.. لو جمعنا فتيات الجامعات الأربع؟ ألا يملأن جامعة كاملة بل أكثر؟ بنفس المعامل ونفس الأدوات، ونفس الأساتذة والمدرسين بلا زيادة ولا تغيير؟

فلنكن صرحاء.. إنها ليست الإمكانيات. ولكنها الرغبة المجنونة في الاختلاط.

* * *

الأخ الذي " يسرّح " أخته لتحصل له على صديقات..

ألا يكمل الدائرة في خياله ويعلم ما لا بد أن يكون؟

أليس يعلم أنه يعطيها القدوة وهو يستخدمها كجلاب الرقيق تحضر له الفتيات؟ أليس يعلم أنها تعرف فيم يريد منها فتاة في إثر فتاة؟ أليس يعلم أنها تدرك أنها تقضي له شهواته عن هذا الطريق؟ أليس يعلم إذن أنه يعطيها القدوة وأنها لا بد أن تبحث لها عن أصدقاء، إما من أصدقائه هو أو من أي طريق؟

ما موقفه؟

أفيرضى في سبيل إشباع شهوته الهابطة أن يعلم أخته الفساد ويدفع بها إلى الطريق؟

أم تراه يرحب بذلك. لعلها في أثناء الصيد أن تقع على صيد ثمين؟

فلنكن صرحاء.. إنها قذارة مغثية يستنكف منها الحيوان.

* * *

الأب الذي ترجع له بنته في ساعة متأخرة من الليل.. ويسألها وتجيب.. كانت تستذكر مع إحدى الزميلات.

هل يعلم؟ هل يحدس؟

هل يعلم أن الشاب الذي كانت معه أوصلها إلى باب البيت وانتظرها في الصباح؟

وما موقفه حين يعلم؟

وحين يتحرك قلبه من الداخل ثم يخنع ويسكت.. ويتظاهر بالرضا

هل يظن أنه ما تزال فيه ذرة من الرجولة؟

أم تراه يبتسم في سره، ويقول: " شاطره البنت "!.. متى يتقدم ابن الحلال؟

فلنكن صرحاء.. إنها قذارة مغثية يستنكف منها الحيوان.

* * *

ما حدود الفضيلة؟

حين تخرج البنت عارية الصدر ملطخة الوجه متقصعة الحركات.. يتصايح دعاة " التحرر ": ماذا تريدون أيها المتزمتون! هل الفضيلة هي الملابس؟ هل هي تقاس بسطح الجلد؟ بالسنتي والقيراط؟ إنها فتاة بريئة لا تقصد شيئاً. إنها فتاة فاضلة.

وحين تصادق فتى تذهب معه إلى السينما أو نزهة خلوية يتصايح الدعاة قائلين: و " ماله "؟ ماذا حدث؟ نزهة خلوية بريئة.. ألا يهجس في نفوسكم إلا خاطر السوء؟ يا ناس! أحسنوا الظن. ليس السوء إلا في خيالكم المليء بالترهات والظلمات والظنون. الشاب بريء يريد أن يستمتع متعة بريئة.

وحين يضمها ويقبلها.. ويعبث بعض العبث المحظور.. يتصايح الدعاة: هل حدث شيء؟ هل مست الفضيلة؟ هل نقصت الفتاة شيئاً؟ هل انهدت الدنيا و " تطربقت "؟ يا ناس! العالم بخير! دعوا الأمور تسير. شيء من الصداقة البريئة.. مداعبة لا تتجاوز الحدود..

وحين تقع الواقعة يصرخ الدعاة: إلى متى تظلون متأخرين رجعيين في تفكيركم ونظرتكم للأمور؟ هل الفضيلة شيء مادي حسي؟! الفضيلة في الداخل! في النفس! في المشاعر! إنها فتاة ولهها الحب، وسيطر على مشاعرها " فضحت " في سبيله بكل شيء. إنها فتاة نبيلة المشاعر. ما دامت لا تبيع جسدها لكل راغب. ما دامت مخلصة " لحبها " وفية لفتاها. إنها فاضلة!

ثم تبيع جسدها لكل راغب وتنزل إلى السوق..

ومع ذلك يجد بعض الكتاب في نفسه مزيداً من الوقاحة فيسميها البغى الفاضلة! ويدافع عن الفضيلة المتمثلة في البغاء.

فلنكن صرحاء.. إننا تجار رقيق نريد أن ننشر البغاء!

*　　*　　*

الكاتب الذي يكتب في صحيفته هذه القصة:

امرأة أرسلت إليه " تستشيره "..

كنت متعودة إذا حدث بيني وبين زوجي سوء تفاهم أن أدخل غرفتي وأقفل الباب على نفسي.. فيأتي زوجي فينقر على الباب، ويدخل، فأصفح عنه وينتهي سوء التفاهم.

وفي آخر مرة حدث سوء تفاهم شديد. وغضب وزوجي غضباً عنيفا فقمت ودخلت غرفتي وانتظرت.. فلم ينقر زوجي على الباب كالمعتاد و لم يأت ليستسمحني. اغتظت. أقفلت الباب من الداخل بالمفتاح، وقلت إذا جاء " ألطعه " على الباب ولا أغفر له بسهولة، ولكنه لم يحضر. زاد غيظي. بقيت في غرفتي طوال اليوم. لم يحضر. فتحت الباب، فوجدت زوجي قد غادر المترل. زاد غيظي.. كان لي جار يعاكسني وكنت أغضى عنه. ولكني في هذا اليوم شجعته. فقط لأغيظ زوجي. لم يعرني زوجي اهتماماً. جن جنوني. قررت أن أخون زوجي مع جاري. خنته بالفعل.. ما رأيك؟

الكاتب الذي يكتب هذه القصة..

أي شيء يقصد؟

أيريد حقاً عرض المشكلة؟ أيريد حقاً أن يصل إلى عبرة؟

أم يعلم جيداً ما يؤدي إليه نشر القصة في نفوس القراء، أيا يكن التعليق الذي علق عليها به؟

وما وظيفته؟ ما وظيفته في المجتمع؟ أي دور يؤديه؟

فلنكن صرحاء.. إنه يعلم جيداً أهدفاً آخر يتحقق من نشر القصة، هو إثارة مشاعر الجنس، وتوهين عروة الأخلاق، وتمزيق برقع الحياء بنشر هذه الفضائح البشعة على أنها " واقع ".. واقع تتبجح به صاحبته فتحكيه. إن كانت له صاحبة على الإطلاق!

* * *

الاختلاط.. البريء...

أين يوجد؟ ما حدوده بالضبط؟ وفي أي ركن من أركان الأرض يحصل عليه الإنسان؟

هل هناك - في أي مكان على الأرض - اختلاط اسمه بريء؟

ودعك من سورة المشاعر وتلمظ الشهوات داخل النفوس. سنسمي الاختلاط بريئا ما دام لا يحدث فيه التصاق الجسد والتنفيذ العملي لما يدور في الصدور. فأين يحدث هذا الاختلاط البريء؟ في الحفلات التي تقيمها المدارس بإشراف المشرفين؟ والبيوت بإشراف الآباء؟

نعم. حقا. إنها تكون بريئة هذه الحفلات. فالمشرفون واقفون والآباء ينظرون، ولا يمكن أن تتم إلا نظرة بريئة وحديث مكشوف.

وينتهي الحفل.. ويخرج الأولاد والبنات..

فهل تنتهي الحكاية عند هذا الحد المحدود؟

منذا الذي يقول؟

منذا الذي يقول: إن مقابلات خاصة لا تحدث بعد ذلك، يتم فيها كل شيء غير بريء؟

ما هذا الجنون الجنسي في أمريكا، والإباحية الفاضحة في أوربا، والانحلال الذي ليس بعده انحلال؟

هل " تغذى " الفتيان بالاختلاط البريء وشبعوا من الجنس، فعفوا عن الجريمة؟

وما قيمة الاختلاط البريء إذن إن كان لا يؤي غاية ولا يمنع جريمة؟ ما قيمته في واقع الحياة؟

لقد زعمت أوربا في القرن الفائت أنها اهتدت لهذا الاختلاط البريء كحل لمشكلة الجنس المكبوت. ثم رأت بنفسها النتائج! وعرفت أنه لا يظل على براءته قيد خطوات! ومن ثم لم يعد دعاتهم يكتبون عن " الاختلاط البريء ". كانوا صرحاء مع أنفسهم. قالوا: إنهم يريدون الاختلاط وليكن من نتائجه بعد ما يكون!

ونحن ما زلنا نردد الأسطوانة القديمة.. الأسطوانة التي بليت من سوء الاستعمال!

فلنكن صرحاء.. ونطلب الاختلاط في صراحة، بكل ما يترتب عليه من نتائج وما ينشأ عنه من آثار.

* * *

هذه العيون الزائفة التي تتبع كل فتاة عابرة تتفحصها من قمة رأسها إلى إخمص قدميها، وتتحسس بالنظرة كل مكمن في جسد وكل موضع مستور..

هذه النفوس الشاردة التي تحوّم في بخار الجنس الموبوء لا تكاد تفيق من أحلامه المسعورة، تتلمظ على كل منظر مثير، وتتعلق بكل خيال دنس منهوم..

هذه القطعان من الشباب التي تطارد كل فتاة كالكلاب المسعورة.

هل هذه مخلوقات آدمية؟

هل هي نفوس يرجى منها خير؟

هل هي سواعد تقيم بناء أمة؟

فلنكن صرحاء..

* * *

هذه الفتاة المتميعة الرقيعة المنحلة التي تملأ الشوارع.. التي تتكسر في مشيتها وتتخلع في حركتها وتتمايع في لفظتها وتترقق حتى لا تستطيع أن تنطق الحروف.. تسوري (تصوري).. مش تايقه (طايقة) الفستان السوف (الصوف) من كتر الحر! (في يناير!)...

هذه الفتاة التي تستلفت بعينيها الجاهرتين وحكرت جسدها المتلوى وثنيات ردائها المتموج أحط ما يمكن أن يثور في الشباب من خواطر الجنس..

هذه الفتاة التي تبلغ بها الوقاحة أن تبدأ هي بالغزل، وتخرج من بيتها لتعاكس الشبان.

هل هذه مخلوقة آدمية؟

هل هي تصلح أن تكون أما ومربية أبناء؟

هل هي تصلح أن تنشئ جيلا يكافح ويصبر على الكفاح؟

فلنكن صرحاء..

* * *

فلنكن صرحاء..

فلنواجه المشكلة في حقيقتها، بلا عنوانات خادعة ولا أضاليل.

فلنقل في صراحة وفي شجاعة ما نريد أن نقول..

فلنقل: إننا لا نريد الدين ولا نريد الأخلاق ولا نريد التقاليد.

فلنقل: إننا نريد تخريج جيل من الأناسى يعيشون كالحيوان.

فلنقل: إننا نكره الترفع ونكره الصعود.

فلنقل.. ولا تخف.. ما دمنا مؤمنين بما نقول!

أما الاستتار وراء التحرر والتقدم والانطلاق. فكل ذلك ستار زائف لا يلبث أن يزول!

ولا جرم يكره هؤلاء كلهم الإسلام.. فلن يجرؤ أحد منهم على الظهور حين نكون مسلمين!

حين نكون مسلمين

حين نكون مسلمين تتغير ولا شك صورة المجتمع كله، ويتخذ صورة جديدة.

وهنا يفزع أناس، وتوجس من الخوف قلوب!

كيف تكون يا ترى صورة المجتمع المسلم؟

السيف مصلت على الرقاب، والجلاد منهمك في العمل ليل نهار يجلد المخالفين!

المرأة في " الحريم " لا تخرج ولا تتعلم ولا توظف في عمل ولا تشترك في نشاط!

اللحى تملأ الشوارع والعمائم تملأ الدواوين!

اختفى المرح من الوجوه والقلوب، واستبدلت به تقطيبة صارمة لا تبتسم ولا تلين!

الرجال في المساجد والنساء في البيوت، وقد خيم السكون والصموت والجمود.

تلك صورة المجتمع المسلم في أذهان الكثيرين!

وحق لهم أن يرتجفوا من الفزع ويكرهوا هذا الدين!

* * *

وآخرون قد لا يسوء ظنهم إلى هذا الحد، ومع ذلك يوجسون، ويكرهون هذا الدين.

الشباب المنطلق مع الشهوة المتفلت من القيد.

الشباب الذي مرد على المتاع الدنس. الذي يعيش ليله ونهاره مسلوب القلب. يملأ خياله الجنس، وتنفخ في دمه الشهوة، ويتفرز في نهم مسعور.

الشاب الذي توقظ كوامنه الصورة العارية في المجلة، والصورة العارية في السينما، والجسد العريان على المسرح، والفتاة العريانة في الشارع، والأغنية العريانة في المذياع، والفكرة العريانة في الكتاب، والقصة العريانة " لكبار " المؤلفين.. فينطلق في دمه شواظ مجنون.

الفتاة التي توقظ كوامنها وَصفات الجنس في كل مجلة تقرؤها وفي كل صحيفة، ومناظر الاستمتاع الفاجر في المسرح والسينما، وتملأ خيالها الصور والألفاظ الخليعة فتشيع فيها الشوق الملهوف والسعار المجنون.

هذا الشباب – بهذا النهم المتوفز واللهف المسعور – يفزع من ذكر الإسلام، ويحس بلذعته في أعصابه، لأنه يتخيل نفسه بشواظه الفائر في دمه، محروماً من كل متاع يطفئ لهفته، فيجن جنون رغائبه، ويتخيل هذا الإسلام كالغول المفترس الواقف بالمرصاد لكل متاع مرغوب.

* * *

وآخرون يستنفعون من تحطيم الفضيلة وإشاعة الفاحشة في المجتمع، فيفزعون فرقاً ويكرهون هذا الدين.

أصحاب الصحف العارية والمجلات المكشوفة.

أصحاب السينمات وصناع الأفلام.

كتاب القصص الجنسية.

كتاب الأفكار العارية المنحلة.

عبيد الاستعمار.. الذي يكره الإسلام ويفزع من انتفاضته.. فيسلط عليه عملاءه يحطمونه من الداخل، وينخرون فيه كالسوس، ويشوهون صورته في الأذهان.. وينشرون في الوقت ذاته الرذيلة لتملأ الفراغ..

هؤلاء كلهم يفزعون من ذكر الإسلام ويكرهون هذا الدين، لأنه ينظف المستنقع الذي يعيشون فيه ناجين رابحين.

ولا يعنينا الآن هذا الفريق الثالث وإن كان أخطر فريق!

وإنما يعنينا الفريق الأول والثاني، لأنه حين يعرف هؤلاء الإسلام على حقيقته ويؤمنون به، فلن يستطيع الفريق الثالث أن يصرفهم عنه ولو اتخذ إلى ذلك كل سبيل.

صورة الإسلام المشوهة في نفوس الناس، التي جهد الاستعمار في تشويهها، وساعد " رجال الدين " بجمودهم وتحجرهم على تثبيتها.. هذه الصورة هي العدو الأول اليوم للفكرة الإسلامية.

كيف تكون صورة المجتمع المسلم؟

إن كثيراً من المسلمين أنفسهم، المخلصين لهذا الدين، لا يعرفونها تفصيلا، ولا يعلمون كيف تكون.

والمشكلة الكبرى في الأذهان هي وضع المرأة في المجتمع المسلم، ودورها الذي تؤديه فيه.

هل تخرج للشارع أو تبقى في المترل؟

هل تتعلم؟ في أي مدى، وفي أي نطاق؟

هل تذهب للجامعة وتدرس دراسة مشتركة؟

وما تكون علاقتها بالطلبة في أثناء الدراسة؟ تكلمهم؟ تنأى عنهم؟ في أي حديث تشركهم؟

هل تعمل؟ أم ليس حلالا أن تعمل؟

وكيف تتزوج؟ تخرج تعرض نفسها ليعرفها الشبان؟ أم تمكث في بيتها حتى يعثر عليها اعتباطاً عابر طريق؟

وما علاقتها " بالمجتمع "؟ علاقة خوف ونفور؟ أم علاقة سلبية لا تعطي ولا تأخذ ولا تشارك في أمر من الأمور؟

وما " كيانها " في المجتمع المسلم؟ إنسانة؟ أم عبدة؟ أم كم مهمل ليس له كيان؟

وما حدود إنسانيتها؟ وكيف تمارسها؟ بالبعد عن الرجل؟ أم بمشاركته؟ أم بمزاحمته؟

ما وضعها بالنسبة للرجل على وجه التحديد؟ زميلته؟ مساويته؟ تابعته؟ سيدته؟

وكيف تمارس علاقتها معه؟ تلقاه وتزامله وتناقشه وتصاحبه وتتعرف عليه بمفردها وتقيم معه علاقات " خاصة "؟ وما مدى هذه العلاقة؟

وما صورته في نفسها ومخيلتها؟ ذئب مفترس يُحذر؟ أم عاشق ولهان يُميل؟ أم معجب من بعيد؟

وهل تحب؟ هل يخفق قلبها بالعاطفة نحو رجل معين؟ ثم.. تبوح بحبها هذا أم تخفيه؟ و " تمارسه " في أية صورة؟

هل تقول لأهلها إذا تقدم إليها رجل: كلا. لست أحبه، وأحب فلانا وأريده؟

وما علاقتها بأسرتها؟ فرد من القطيع الذي تتكون منه الأسرة؟ أم فرد له كيان؟ وما حدود ذلك الكيان؟ تخض لأبيها وأمها في كل أمر وكل نصيحة وكل توجيه؟ أم تناقش؟ وما حدود النقاش؟

وتخضع للتقاليد بلا اعتراض؟ أم تعترض عليها؟ وتعترض بالكلام فقط أم تنفذ ما تقول؟

وحين تكون زوجة فهل تنتهي مهمتها؟ أتنقطع للأمومة وتنتهي صلتها " بالمجتمع "؟ أم لا تمنعها الأمومة من النشاط؟ وأي لون من النشاط؟

* * *

هذه وعشرات مثلها من المسائل هي أول ما يخطر في البال عندما يذكر المجتمع المسلم. وتُتخيل صورة معينة للإجابة عليها، ثم يُنفض الموضوع كله على أنه مستحيل.

وقبل أن نجيب على هذه المسائل، وقبل أن نجيب على المسائل الأخرى المقابلة لها، المسائل الخاصة بالرجل في المجتمع المسلم، وموقف الشباب الأعزب من المشكلة الجنسية.. قبل أن نصنع ذلك ينبغي أن نعرف أولا:

ما هو الإسلام؟..

إن خطأ ضخماً جداً يقع فيه المؤمنون بالدين والخارجون عليه سواء حين يناقشون المسائل مناقشة فرعية، كل جزئية على حدة، مفككة مقطعة، دون أن يضعوها أولا في مكانها من الصورة، حتى تتبين دلالتها الحقيقية، ويمكن الحكم عليها في سياقها الصحيح.

وحين ناقشنا الأفكار في أوربا لم نناقش جزئياتها بمفردها.. إنما ناقشنا " المفاهيم " التي تحكم الجزئيات، وتتفرع عنها الفروع. وهذا هو الواقع في كل " نظام " وكل فكرة: إنه تصور معين للأشياء في جملتها، نبني عليه بعد ذلك التفصيلات والفروع.

والإسلام بصفة خاصة ينبغي أن يؤخذ كذلك. فكلما كانت الفكرة أضخم وأشمل لزم إدراك صورتها الكلية قبل البحث في التفصيلات. والإسلام أضخم فكرة عرفتها الأرض في تاريخها كله، وأكبر مفهوم يشمل الحياة.

لذلك ينبغي قبل أن نسأل كيف يكون المجتمع المسلم، والمرأة المسلمة، والرجل المسلم، أن نعرف الصورة التي يأخذها " الإنسان " في مفهوم الإسلام.

* * *

الذي يقرر مركز الإنسان في مفهوم الإسلام.. هو الله.. الله الذي خلق، وهو أعلم بمن خلق.

والله يقول: " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [٣٣] ".

فالإنسان إذن – منذ البدء – مكرم مفضل رفيع المقام.

والله يقول: " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [٣٤] ". فيقرر أنه قبضة من طين الأرض أكسبتها الكرامة والتفضيل على غيرها من الخلق نفخة من روح الله. وإذن فهو عنصران

[٣٣] سورة الإسراء " ٧٠ ".
[٣٤] سورة ص " ٧١ – ٧٢ ".

ممتزجان لا عنصر واحد وهو – في كل شيء – ثنائي الطبيعة ثنائي الاتجاه: " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [٣٥] ". " أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [٣٦] ". " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً [٣٧] ".

وهو مكرم مفضل بكيانه جميعاً.. فقبضة الطين قد امتزجت بنفخة الروح فلم تعد لاصقة بالأرض، وإنما تميزت وتفردت عن بقية الطين. وهو – بكيانه الممتزج هذا – مقبول عند الله مفضل كريم. لا دنس فيه ولا استقذار له ولا تقزز منه، ما دام سائراً مع فطرته مستجيباً لكيانه الأصيل. شهواته المنبثقة من طين الأرض وكيماويات الأرض.. شهوات الطعام والجنس وغيرها من حوائج الجسد التي يقول العلم اليوم إنها مجموعة من الكيماويات.. هذه الشهوات في الإنسان لا تنقص قدره ولا تحط من قيمته، بشرط واحد ليس غير.. أن تظل على هيئتها الأصلية في فطرة الإنسان ممتزجة بنفخة الروح، لا منفصلة عنها ولا لاصقة بالطين: " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٣٨] ".

" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ [٣٩] .. ". " إن في بضع أحدكم لأجرا. قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ قالوا نعم. قال: فإذ وضعها في حلال فله عليها أجر [٤٠] ".

والإنسان في نظر الإسلام " إنسان ".. عريق الإنسانية منذ نشأته، علوي، رفيع، بنفخة الله فيه من روحه. وهذه النفخة الإلهية في الإنسان تهتدي دائماً إلى منشئها. تهتدي إلى الله بالفطرة ما دامت سليمة. والإنسان هو الذي يوكسها ويغبشها ويغشيها فلا ترى سبيلها إليه. وحينئذ ينحرف، ويضل، ويحدث منه كل أنواع الظلم: لنفسه وللآخرين. وكل أنواع الفحش. وكل أنواع الطغيان.

---

[٣٥] سورة الشمس " ٧ – ١٠ ".
[٣٦] سورة البلد " ٧ – ١٠ ".
[٣٧] سورة الإنسان " ٣ ".
[٣٨] سورة الأعراف " ٣٢ ".
[٣٩] سورة آل عمران " ١٤ ".
[٤٠] رواه مسلم.

ومن ثم هو مطالب أن يزكي نفسه ولا يدسيها. يزكيها ويجلو فطرتها، فتهتدي إلى الله خالقها، وتستمد منه التوجيه. وحين يحدث ذلك تصبح هذه الذرة الضعيفة التائهة الفانية.. أقوى عنصر على الأرض وأضخم طاقة.. ويصبح الإنسان بحق خليفة الله في الأرض: يبني ويعمر، ويقيم وينشئ، ويبدع وينظم، مستمداً من روح الله ومن معونة الله، مهتدياً بهديه القويم.

والإسلام كذلك نظام متوازن..

فكما وازن بين قبضة الطين ونفخة الروح، ومزجهما فهما شيء واحد، فكذلك يوازن بين مختلف القوى والطاقات في نفس الإنسان وفي واقع الحياة سواء.

يوازن في داخل النفس بين الواقع المادي والواقع الروحي. بين دفعة الشهوة وانطلاقة الروح. بين الواقع المدرك بالحس والواقع المدرك بما وراء الحواس. بين الشعور المستتر في الضمير والسلوك الظاهر للعيان. بين ضغط الضرورة وحرية التوجه والاختيار.

ويوازن في واقع الحياة بين القوى المادية والاقتصادية والسياسية، وبين القوى الخلقية والمعنوية والروحية. يوازن بين الفرد والمجتمع، ومصلحة الجيل ومصلحة الأجيال.

ويمزج دائماً بين الدين والدنيا.. ويوحد الدنيا والآخرة في نظام.

والإسلام نظام عملي..

لا يكتفي بالوعظ والإرشاد و " تنظيف الروح ".

إنه يعلم جيداً أن تنظيف الروح لا يتم بالوعظ والإرشاد إذا كان المجتمع فاسداً والنظام منحلا والاقتصاد جائراً والسياسة غير نظيفة. إنه لا يفصل بين الروح والجسد وبين الواقع والمثال. إنه يعلم أنه لكي يصل إلى هدفه من تنظيف الروح لا بد من إقامة نظام اقتصادي عادل، ونظام اجتماعي متوازن، ونظام سياسي راشد محكم الرباط.

ومن أجل ذلك لا يضع مبادئه في إطار جميل من المثل، ويتركها معلقة في الفضاء ، إنه يسعى إلى تحقيق الفكرة في عالم الواقع، وإقامة المجتمع كله... بكل تفصيلاته.. على أساس الإسلام.

ومن ثم – لكي يكون المجتمع مسلماَ حقاً – لا بد أن يشتمل على الحكومة المسلمة، والمدرسة المسلمة، والأسرة المسلمة، والفرد المسلم، والإذاعة المسلمة، والصحيفة المسلمة، والكتاب المسلم، والسينما المسلمة، والإعلان المسلم، واللفظة المسلمة، والفن المسلم، والاقتصاد المسلم، والفكر المسلم... وكل شيء ينبغي أن ينبثق من الإسلام ويخضع لمنهج الإسلام.

ولا نعني بالإذاعة المسلمة والصحيفة والكتاب والسينما والفن... إلخ. لا نعني الصورة الساذجة التي تفهم من اسم " الدين ": أن تنقلب كلها خطبا منبرية ومواعظ دينية.

كلا. إن الإسلام غني عن هذا، وهو أوسع وأشمل وأرحب من أن ينقلب إلى خطب مملولة وأحاديث مكرورة وكلام معاد.

الإسلام هو الحياة بأكملها في صورة نظيفة.. الصورة التي تلتقي بفطرة الحياة كلها.. الفطرة التي لا تكتفي بأداء الضرورة وإنما تهدف إلى الإحسان.

فكل شيء تنطبق عليه هذه الصورة فهو إسلام.

الشعر الذي يتحدث عن جمال الطبيعة الفاتنة، الذي يتحدث عن القوة، الذي يتحدث عن انطلاق الطاقة البشرية للعمل والإنتاج، الذي يتحدث عن العواطف الإنسانية النظيفة، الذي يدفع ويحرك إلى الإمام، الذي يفتح الأمل أمام البشرية، الذي يشعر الناس بجمال الحياة وأنها جديرة بأن يحياها الإنسان، الذي يتحدث عن آلام البشر، الذي يدعو إلى إزالة المظالم وإصلاح الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، الذي يصف الحياة كما ينبغي أن تكون.. كل ذلك شعر إسلامي لأنه تعبير عن الفطرة النظيفة، ولو لم يذكر فيه مرة واحدة اسم الدين، ولا مفاهيم الدين المباشرة.

ولكن الشعر الذي يتخصص في وصف دفعة الجسد المشبوبة. الذي يدور كله حول أحلام جنسية واقعة أو مشتهاة. الذي يصف جسد امرأة عريان أو شهوان. الذي يصف لحظة الخضوع للضرورة لا لحظة الترفع عن الضرورة. والشعر الذي يثير الأحقاد.. والشعر الذي يصف لحظات الضعف البشري بكل أنواعها. الشعر الذي يعبر عن ضلال الكائن البشري وضآلته وظلامه.. كل ذلك ليس شعراً إسلامياً ولو لم يتعرض بكلمة واحدة للدين والعقيدة والمفهوم " الرسمي " للأخلاق، لأنه يمثل الفطرة المنحرفة أو الفطرة الضعيفة، ومن ثم لا يتمشى مع الهدف الأصيل للإسلام.

ويسأل الواقعيون والطبيعيون وأشباههم: أليس لحظة الضعف حقيقة بشرية؟ فكيف لا يعبر عنها الفن؟ والجواب أولا أن الفن ليس آلة تسجيل لاقطة تسجل كل شيء على ما هو عليه، وإنما هي تختار وتنتقي " اللقطة " التي تسجلها. والجواب ثانياً أن لحظة الهبوط ليست أجمل ما في الإنسان ولا أجدر شيء بالتسجيل. إنما الجدير بالتسجيل هو اللحظة التي يحقق فيها الإنسان ذاته. لحظة امتزاج الطين بنفخة الروح، لا لحظة انفصال الطين ولصوقه بالأرض. والجواب ثالثاً أن لحظة الهبوط يمكن أن تسجل تسجيلا فنيا كاملا، على ألا تكون هي محور التلذيذ وإثارة الإعجاب. أي لا يكون الهبوط هو البطولة التي يسلط عليها الضوء! وإنما يسلط الضوء على لحظة الإفاقة. اللحظة التي يعود فيها الكائن البشري إلى أصالة الفطرة، اللحظة التي تعود فيها قبضة الطين فتمتزج بنفخة الروح. ومثال ذلك قصة يوسف عليه السلام في القرآن. قصة دقيقة الوصف بديعة التصوير لا ينقصها شيء من جمال الفن. وهي تعرض لحظة من اللحظات الغليظة في حياة النفس البشرية " الواقعية "! لحظة هياج الشهوة وتغلبها على كل صوت وكل نداء. ومع ذلك فهو وصف لا يثير الشهوة ولا يبعث التلذذ من منظر الجنس، إن لم نقل إنه على العكس يثير الترفع عن اللحظة الهابطة ويدعو للاحتراس.

وما ينطبق على الفن بشعره ونثره ولوحاته ينطبق على السينما والمسرح والإذاعة والموسيقى والغناء.. وبذلك تختفي المثيرات الجنونية التي تهيج الشباب وتطلق في دمائهم النهم المسعور. وفي الوقت ذاته لا يفقد المجتمع عنصر المتعة وعنصر الجمال.. فليس المتاع كله أقذار.

وعندئذ لا يصعب على الشباب أن يحاولوا الفضيلة ويقدروا عليها. فإنما يصعب عليهم في الوقت الحاضر، بل يتعذر، لأنهم وهم لحم ودم ودوافع وأعصاب، يعيشون ليل نهار وسط مثيرات جنونية تنفخ في أعصابهم باستمرار، وتحسن في أعينهم المنكر، وتشجع المترددين والمترددات، وتنفي عنهم في الوقت ذاته – بوسائلها المختلفة – كل صوت فاضل وكل توجيه سليم.

وعندئذ تخرج الفتاة أو لا تخرج.. وتعمل أو لا تعمل.. وتلقى الرجال أو لا تلقاهم.. فليست العبرة في ظاهر العمل إنما العبرة بالهدف وطريقة التنفيذ.

حين يوجد المجتمع المسلم القائم على أخلاق الإسلام ونظام الإسلام، فيمكن عندئذ أن نبحث التفصيلات والفروع. وبنحث وضع المرأة ووضع الرجل وكل ما بينهما من شئون.

ولكن أولا يجب ان نطمئن إلى قيام مجتمع مسلم.

مجتمع يتوجه إلى الله، ويستمد منه منهج حياته، ويسير على هديه الذي ارتضاه.

مجتمع يعبد الله. يعبده فعلا لا قولا. يؤدي عباداته وفروضه مؤمنا بها منفذا لها: " ليس الإيمان بالتمني. ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ".

مجتمع لا يكتفي بأن يصلي ويصوم ويدفع الزكاة.

مجتمع لا يفعل الفاحشة ولا يسمح بوقوعها ولا يدعو إليها ولا يحبذها.

مجتمع يقوم على المودة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

مجتمع لا يسرق ولا يكذب ولا يغش ولا يخدع.

مجتمع لا يغتاب ولا يتجسس ولا يغمز ولا يلمز.

مجتمع تأمن فيه أن تتعامل مع العامل فلا يغشك وينهب نقودك. ومع الموظف فلا يستهتر بمصلحتك. ومع التاجر فلا يغشك في السعر أو البضاعة. ومع المدرس فلا يسدد الخانات ويترك التلاميذ يرسبون ليأخذوا دروساً خصوصية. ومع الطالب فلا يغش في الامتحان ولا يأخذ العلم وسيلة للشر. ومع الزوج فلا يظلم امرأته ولا يهدر كيانها. ومع الزوجة فلا تخون زوجها في عرضه أو ماله. مع الوالد فلا يكذب على أبنائه فيعلمهم الكذب، ولا يعطيهم في شخصه قدوة السوء، ولا يربيهم على الجبن والاستخذاء والانحلال والسلبية. مع الابن فلا يغش أباه ولا يخدع أمه ولا يسلك معهما سلوك الأشرار.. مع الحاكم والمحكوم والصغير والكبير على السواء.

مجتمع توازنت اقتصادياته.. لا فقير يموت جوعاً ولا غني يفسد قلبه الثراء.

مجتمع ليس فيه متعطل، فالبطالة من منابت الشر. لا متعطل لأنه لا يجد العمل. ولا متعطل لأنه تافه يملأ قلبه الفراغ..

مجتمع لا يطغى بجبروته على الفرد ولا يسمح للفرد أن يتجبر عليه.

مجتمع يحب السلام ويعمل من أجله: السلام في البيت وفي الشارع، وفي الفرد، وفي المجموع.

مجتمع نشيط عامل مفكر صاعد عى الدوام

*　　*　　*

ذلك هو المجتمع المسلم..

من يجرؤ على أن يكره هذه الصورة الجميلة أو ينفر منها؟

من إلا مسخ مشوه منحرف الفطرة يريد أن يستمتع على طريقة الحيوان أو يأخذ من المجتمع ولا يعطيه؟

وتلك بطبيعة الحال صورة مجملة مصوغة في قالب تبدو وكأنها مُثل خيالية أو أماني وأحلام.

ولكنها واقع شهدته الأرض مرة بكل حقيقته وكل واقعيته، في فترة رائعة من فترات التاريخ. ويمكن أن يعود..

وسوف يعود.. إن شاء الله.

وفي هذا المجتمع لا ينقلب الناس إلى ملائكة أطهار. وإنما هم بشر يحققون فطرتهم الحقيقية: قبضة الطين الممتزجة بنفخة الروح. يترفعون عن الفاحشة، لأنهم أغنياء عن الفاحشة.

ولن يكونوا بطبيعة الحال كلهم كذلك.

ففي المجتمع الرباني الذي أنشأه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بشخصه الكريم وروحه النبيلة العالية، وجد من يلمز الرسول ذاته في عرضه في حديث الإفك المشهور.

كلا! لا يحدث قط في أي مكان في الأرض وأي فترة من التاريخ أن يصبح الناس كلهم من الأخيار.

ومع ذلك فهناك فرق حاسم واضح بين مجتمع تكون فيه الجريمة شذوذا يستنكر، ومجتمع يكره الفضيلة ويعدها هي الشذوذ، كذلك المجتمع الذي حكى عنه القرآن وهو

يقول: " أخرجوا آل لوط من قريتكم، إنهم أناس يتطهرون! " وكما يوشك المجتمع الذي نعيش فيه أن يكون.

* * *

في هذا المجتمع نعرض وضع المرأة ووضع الرجل على السواء.

مجتمع من الأحرار.. رجل حر وامرأة حرة.

ومعنى الحرية في الإسلام واسع جدا وشامل جدا.. لم يرتفع لمستواه أي مدلول آخر من المدلولات الشائعة للحرية حتى اليوم، في الشرق والغرب على السواء.

حرية إزاء القيم كلها والقوى كلها والاعتبارات كلها.. وعبودية واحدة: لله.

الله هو المعبود الأحد في المجتمع المسلم. لا المال ولا الجاه ولا المنصب ولا الشهوة ولا الهوى ولا الإنسان.

الله هو المعبود. وكل شيء غيره هباء.

والمرأة والرجل كلاهما عبيد الله. أحرار فيما خلا ذلك يستمدون الحرية من هذه العبودية ذاتها لله.

فحينما يعبد الإنسان الله حق عبادته، ويتصل به الاتصال الحق، ويستمد منه الاستمداد الحق، يحس من لحظته بضآلة كل قوة أخرى على الأرض، وكل قيمة أخرى وكل جاه وكل سلطان.

وعند ذلك يتحرر.

يتحرر من الضغط الواقع عليه من داخل نفسه ومن خارجها على السواء. ضغط الشهوات والضرورة من جانب، وضغط المجتمع وقواه الاقتصادية والاجتماعية من جانب آخر.

يتحرر.. لأنه قوي بالله، غني بالله، مستمد من الله، واصل إلى حماه.

لا يخاف الموت، ولا يخاف الفقر، ولا يخاف الظلم، ولا يخاف الهم، ولا يخاف الحاضر، ولا يخاف الغد.

لا يخاف.. لا لأنه لا يبالي.. ولكنه لأنه متصل بالقوة الحقيقية التي تملك كل شيء في الحياة. ولأنه على استعداد لأن يكافح كل ما يقع عليه من ظلم ومن ضيم، مستعيناً بالله، مستوثقاً من معونته إياه.

وليس معنى تحرره أنه لا يخضع لنظام.

كلا! فما يمكن أن تسير الحياة على هذه الصورة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا حين يُتبع الهوى والشهوات. وليس هذا هو التحرر.. فالتحرر يعني كذلك التحرر من الهوى والشهوات.

وإنما هو حين يخضع للنظام الذي ارتضاه الله، يخضع في الحقيقة لله، ويتعامل مباشرة مع الله.

ومن ثم يطيع ولي الأمر ويطيع نظامه المستمد من شريعة الله. ويبدي له النصح والتوجيه الذي يتفق مع الخير العام.

وهكذا تمتزج الطاعة والحرية على هذه الصورة الفريدة التي لا توجد إلا في نظام الله.

وكذلك لا تستعبد المرأة للرجل وهي تطيعه – في الحدود المرسومة في شريعة الله – فهي تملك – بل واجبها – أن تواجه رجلها إذا رأته ينحرف عن طريق الله.

* * *

لا تستعبد المرأة للرجل.. لأنه ليس أحد عبداً لأحد قط غير الله.

ولا تستعبد للمجتمع ولا لأي قوة من قوى الأرض.

وإنما هي – كالرجل – عبد لله تطيعه، وتتعامل معه مباشرة، وتحس بالتبعية الخالصة له وحده، والقوة الكاملة عن طريقه: " رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا

وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ " (٤١).

هذا الارتباط بالله هو الذي يعطي للمرأة كرامتها الإنسانية واستقلالها الحقيقي. إنها في عرف نفسها - وهي كذلك عند الله - مخلوق إنساني كريم متصل بالله، مستمد منه كل حياته وكل كيانه وكل قواه.

وهذا الارتباط هو الذي يمنحها شخصيتها - بنفس الصورة التي يمنح للرجل شخصيته.

إنها ليست جزءاً من أحد. ليست كياناً ناقصاً يستكمل ذاته من كيان بشري آخر (إلا بمقدار ما يستكمل الرجل كيانه في ارتباط الزوجين.. وهذا أمر آخر..)

وحين تطيع الرجل فيما فرضه الله عليها من طاعة، فهي لا تفقد كيانها ولا استقلالها وشخصيتها. ومرد الشخصية الدائم ومحك الاستقلال الدائم، أنها تملك - بل من واجبها - أن ترد الرجل إلى الصواب حين تراه انحرف عن سبيل الله.

لا شيء يعطي الإنسان شعوره بشخصيته بقدر ما يعطيه ذلك الحق.. حق التوجيه.

لقد كان كفاح الشعوب كلها في سبيل شعورها بذاتيتها وتحقيق كيانها هو أن تصل إلى هذا الحق.. حق توجيه الحاكم حين يخرج عن القواعد المرسومة التي يخضع لها الجميع من حاكم ومحكومين.

وهذا الحق هو حق كل فرد في المجتمع الإسلامي. حق المرأة وحق الرجل على السواء.

وحين تدرك المرأة في نفسها هذه القوة التي تستمدها من اتصالها بالله، تكون لها في صميم كيانها شخصيتها المستقلة وذاتيتها المتحققة في واقع الحياة.

وليس الاستقلال أن تناجز زوجها وقف منه موقف المتحفز للهجوم.

---

(٤١) سورة آل عمران " ١٩٣ - ١٩٥ ".

ليست الحياة معركة في داخل البيت، ويكفي أن تكون معركة ضد قوى الشر المتحفزة في كل مكان.

الحياة في البيت محبة وسكن ومودة: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً " [٤٢].

وحين توجد المحبة يوجد الامتزاج الكامل الذي لا يحس فيه أحد الزوجين أين ينتهي وأين يبدأ الآخر..

ولكن مع ذلك توجد اللحظة التي يرغب كل منهما أن يحس بذاتيته ويعرف حدود كيانه..

فتلك هي الحدود..

كلاهما عبد الله. وكلاهما يملك – بل من واجبه – أن يوجه الآخر إلى طاعة الله.

بل هي تملك أن تحتج عليه – في عنف – إذا خالف.

بل هي تملك أن تقول له: لست زوجتك منذ اليوم، ما دمت قد خرجت عن طاعة الله [٤٣].

بذلك تحس بكيانها كاملا، عن طريق الارتباط بالله.

* * *

وليس بهذا وحده تجد المرأة شخصيتها. فإنها – شأنها في ذلك شأن الرجل – تملك أن تجد شخصيتها بأن تصبح – باختيارها – امرأة فاضلة.

إن الفضيلة في المجتمع المسلم ليست مفروضة على المرأة بالسيف كما يخيل لبعض الناس. إن الذي يفرض بالسيف هو الحد الأدنى من الفضيلة – القدر الذي لا يستطيع

---

[٤٢] سورة الروم " ٢١ ".

[٤٣] هذا بطبيعة الحال بجانب حقها الشخصي الدائم في الانفصال عن زوجها إذا كانت كارهة للحياة معه. انظر بالتفصيل: فصل " الإسلام والمرأة " في كتاب " شبهات حول الإسلام ".

المجتمع أن يعيش بدونه. وهذا القدر – في المجتمع المسلم – مفروض على الرجل كما هو مفروض على المرأة بنفس المقدار، سواء في التشريع أو التوجيه:

" الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ (٤٤) ".

" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ.. وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ " (٤٥).

وحتى هذا القدر المفروض بسلاح القانون، يملك الرجل وتملك المرأة أن " يختارا " فيه موقفهما فيصبحا فاضلين اختياراً لا عنوة، وعن إيمان صادق لا عن خوف ورهبة من العقاب.

وهذا هو الذي يصنعه الإيمان في نفوس المؤمنين.

ولكن الفضيلة أوسع بكثير جداً من هذه الحدود " الرسمية " التي تمثل الحد الأدنى الذي بدونه ينهار المجتمع من أساسه. إنها تشمل بناء النفس كله. وتشمل كل تصرف وكل شعور.

وهنا يملك " الإنسان " – رجلا كان أو امرأة – أن يكون فاضلا باختياره، ترفعاً منه عن الهبوط والتردي في حمأة الرذيلة.. ويحس عند ذلك إحساساً قوياً بأنه إنسان. وأنه ذو وجود على أوسع نطاق.

تملك المرأة ألا تكذب.

والكذب رذيلة لا يعاقب عليها قانون الأرض. فهي حين تمتنع عن الكذب، لا تمتنع خوفاً من العقاب وإنما هي تصدق ترفعاً عن الهبوط للرذيلة، وإباء بكيانها المسلم أن يسفل وينأى عن طريق الله.

وتملك ألا تتجسس.

وتملك ألا تغمز وتلمز.

---

(٤٤) سورة النور " ٢ ".
(٤٥) سورة النور " ٣٠ – ٣١ ".

وتملك ألا تخادع وألا تغش.

وتملك – باختصار – أن تكون مستقيمة في سلوكها وشعورها وأفكارها وحركاتها وسكناتها..

وحينئذ تحس بنفسها على أنها " إنسان ". وتصغر القيم الأضية كلها في نفسها، ولا تحس لها بوجود إزاء كيانها المتحقق الكبير.

* * *

وهي تملك قبل ذلك كله أن تكون صاحبة عقيدة. عقيدة إيجابية نشيطة فاعلة.

والعقيدة الإسلامية بذاتها عقيدة متحركة لا تملك السكون. فما إن تأخذ مكانها الحق في النفس حتى تطلقها.. تطلقها في كل اتجاه.

وليس كالشعور الإيجابي منشط لكيان الإنسان ومحقق لوجوده. وليس مثله علاج لأمراض النفس كلها. علاج لضعفها وقصورها وسلبيتها. علاج لعقدها وأمراضها واضطراباتها.

ومن ثم كان المجتمع المسلم – الحق – أقل المجتمعات أمراضاً نفسية واضطرابات عصبية. لأن الانطلاق الإيجابي الذي تحدثه العقيدة يطلق الطاقة الكامنة من معقلها ويفرغها في سبيل الخير، فلا تحس النفس كبتاً ولا تجد طاقة حبيسة تبحث عن تنفيس، هو تنفيس منحرف في أغلب الأحيان.

والإيجابية ألوان كثيرة وميادين متعددة. إنها ليست محصورة في نطاق معين. إنها ليست العمل المادي وحده. إنها كل عمل. وكل فكرة وكل شعور. وكل خاطرة في الضمير.

إن مجرد أن يكون للإنسان اتجاه محدد تجاه الأشياء والأحداث والأشخاص، مجرد أن يكون له رأي. مجرد أن يكون له مقياسه الذي يقيس به الأشياء ويصدر حكمه عليها... هذا وحده يعطي النفس إيجابية هائلة، يتبين أثرها في المشاعر كما يتبين في الأقوال والأفعال..

والعقيدة تصنع ذلك. إنها تمنح الإنسان المقياس الذي يحكم به على الأشياء والأحداث والأشخاص. تمنحه الرأي الذي يكوّنه. ويكونه لا عن هوى واستجابة للشهوات (فهذه سلبية وإن بدت إيجابية) وإنما يكون عن محك موضوعي يبدو فيه نضوج الشخصية والقدرة على التمييز.

وهذا الميدان مفتوح للمرأة كاملا بقدر ما هو مفتوح للرجل. والمرأة المؤمنة – رغبت أم لم ترغب – لا بد أن تكون لها الشخصية الإيجابية تجاه الأشياء، لأنها لا تستطيع أن تقبل ما يخالف عقيدتها وحكمها على الأشياء، ولو صدر من أقرب الناس إليها: أهلها أو زوجها أو أبنائها. ولا بد أن تبدي رأيها بالموافقة أو الرفض في كل ما يعرض لها من شئون..

وليس من شيء يمنعها – بعد – من الجهاد في سبيل هذه العقيدة حين يحتاج الأمر إلى الجهاد.. جهاد بكل الوسائل حتى ساحة القتال.

*   *   *

وهي تملك الإحساس بشخصيتها وإيجابيتها وفاعليتها في أبنائها. في تربيتهم على العقيدة وتوجيههم إلى الصواب.

إن المرأة في عرف الإسلام ليست آلة للولادة والحضانة والإرضاع.. وإلا لما حرص كل الحرص على تهذيبها وتعليمها وتقوية الإيمان في ضميرها وتوفير الضمانات المعيشية والقانونية والنفسية والروحية لاستقرار كيانها.

إن الإسلام لا يبذل كل هذا الجهد المضني لتربيتها – وتربية الرجل كذلك – من أجل شخصيهما كفردين يقضيان فترة على الأرض ثم يمضيان.

كلا! فما تساوي المسألة على هذا الوضع كل هذا الجهد.

إنما يعمل الإسلام دائماً حساب الأجيال القادمة التي تقوم بتربيتها الأجيال الحاضرة. ويهذب الحاضر ليكون في الغد – دائماً – نتاج نظيف.

وهو في هذا يعنى بالرجل والمرأة كليهما باعتبارهما الأب والأم للنتاج الجديد. ولكنه يعنى بالمرأة خاصة لأن الأم هي منشئة الأجيال. المنشئة الحقيقية. والأب يشارك

فيما بعد. وقد يتولى الأمر وحده – أو بصفة رئيسية – بعد ذلك، ولكن الانطباعات الأولى في نفس الطفل، الانطباعات التي تندس في حسه وهو وليد، وتكون شخصيته فيما بعد، هذه الانطباعات يأخذها من أمه أكثر، بحكم التصاقه بها التصاقا حسياً ومعنوياً حتى يملك على الأقل أن يسير، ويوسع دائرة " المجتمع " الذي يعيش فيه!

من أجل هذا وفر الإسلام للمرأة ضمانات الحياة، ولم يحوجها إلى أن تعمل لكفالة نفسها وأسرتها. لكي تتوفر على أخطر مهمة في حياة البشرية: مهمة الإنتاج البشري، ورعايته وصيانته من الفساد.

وإنها لحماقة ما بعدها حماقة – في عصر التخصص! – أن تترع المرأة من اختصاصها الذي لا يحسنه غيرها، لكي تشترك في الإنتاج المادي، الذي يملك الرجل أن يقوم به، وتملك أن تقوم به العدد والآلات!

وقد كنا نتحدث عن الإيجابية..

والمرأة تملك أن تحس بإيجابيتها وتحقق كيانها في تربية أبنائها. نقول في التربية لا مجرد الولادة والحضانة والإرضاع، التي تقوم بها كل قطة ولود وكل بقرة حلوب.

التربية.. التكوين النفسي للأطفال.. بذر العقيدة الصحيحة في التربة الجديددة.. غرس الفسيلة النابتة في موضع جديد.

إنها جهد ضخم شاق مجهد طويل. وهو جهد إيجابي حين تحسنه المرأة.. وهي تملك الإحسان!

* * *

وليس معنى ذلك ألا تعمل!

الإسلام لا يمنع العمل.. كل ما في الأمر أنه لا يستريح إليه. يجيزه كضرورة. ولكنه لا يجعله الأصل في الأشياء.

إنه يكره أولا تجنيد المرأة في غير ميدانها الأصيل. ويكره ثانياً أن يكد أعصابها ويرهقها بالعمل، فلا تبقى فيها بقية مشرقة رفافة ندية ودود، ترف بعذوبتها على جو المترل، وتمسك رباطه بسحرها المتجدد الفياض. وحين تعمل المرأة فإنها تعود – كالرجل

– مكدوده مرهقة الأعصاب، فتناطح الرجل ويناطحها، صلدين لا يتفاهمان. وفوق ذلك لا يشعر الأولاد بأهم يملكون أماً. وإنما كأهما أبوان مذكران!

لذلك حرص الإسلام أن يكفل لها ضرورة العيش دون حاجة إلى الكد والعمل للارتزاق. وإن كان لم يحرم العمل حين توجد الضرورة.. وهي توجد على الدوام!

أما في الأعمال النسوية الخالصة: التدريس والتمريض والتطبيب للنساء.. فهو لا يجيز العمل فقط، بل يفرضه فرضاً كما يفرض التجنيد العسكري على الرجال.

* * *

أما العلم فهو فريضة.. وليس لهذه الفريضة حدود.

كل ما في الأمر أنها ينبغي أولا أن تتعلم ما يناسب فطرتها، ويعدها لمهمتها الكبرى في إنشاء الأجيال، وبعد ذلك تتعلم – إن أرادت – كل ما تشاء بغير حجر ولا تحريج..

وهذا يجرنا إلى موضوع الاختلاط.. فحين تتعلم تعليما جامعياً ستختلط مع الشبان [٤٦].

ولقد حاولت – مخلصاً – أن أجد المبررات لإباحة الاختلاط!

قرأت ما يقال من حجج وأردت أن أميل إلى التصديق!

قرأت حكاية التهذيب!

المجتمع المختلط يهذب المشاعر الجنسية ويكسر من شرتها. لأنه لا يوجد الجوع الجنسي الكافر الذي يؤدي إلى الانحراف أو الشذوذ.

وحين يرى الشاب الفتاة وتراه، ويطمئن كل منهما إلى الرؤية والمقابلة، وتزول اللهفة المتلصصة المختلسة، لا يعود الجنس هو الشاغل الأول، ويرتفع الشاب والفتاة عن

[٤٦] الأصل في نظر المجتمع الإسلامي أن تكون هناك جامعة نسوية، ولكننا نفترض أن التعليم المشترك ضرورة.

بهيمية الغريزة، لأنهما سيشغلان لقاءهما بأحاديث علمية وأدبية، ومناقشة أمور سياسية واجتماعية وفكرية. أشياء خارجة عن نطاق الجنس.

وحين يوجد الشاب في مجتمع مختلط تتهذب ألفاظه، فلا ينطق بالفحش الذي يستبيحه لنفسه في مجتمع الشبان..

وحين تتعود الفتاة على لقاء الرجل وصحبته تتغير صورته في نفسها فلا يعود هو الذئب المفترس، ولا الحيوان الغريب الأطوار، ولا الكائن المرهوب.. ولا الجسد الظامئ الذي يتلمظ على جسد شهوان.

وحين يلتقي الجنسان يتعرف كل منهما على طباع الآخر.. ولا يصبح اللقاء في الزواج هو المفاجأة المذهلة التي تحير الأعصاب وتربك الأفهام.

وحين يرى الشاب النساء ويختلط بهن في المجتمع، يحدث ذلك التصريف الجنسي النظيف الذي يرفع الحمل عن كاهل الأعصاب ويجعل الشاب يتفرغ للإنتاج: طالباً كان أم موظفاً أم عاملا..

وحين ترى الفتاة الرجال وتختلط بهم في المجتمع، يحدث هذا التصريف، فلا تعود الفتاة تنفق طاقتها كلها في التزين الذي تتصيد به الرجال، ولا يعود الصيد هو همها المقعد المقيم.

وحين.. وحين.. وحين..

ولقد أردت نفسي على أن تصدق ذلك كله.. وملت إلى التصديق!

ثم بحثت عن هذه الصورة الجميلة اللطيفة الرفيعة السامية.. أين توجد؟ أين توجد لأراها وأصدقها في واقع الأرض لا في المثل والأحلام؟

في الغرب؟ في الشرق؟ في مصر؟ في أي بلد من بلاد الأرض؟

هل أمريكا تعاني الكبت الجنسي بسبب عدم الاختلاط؟

ما بالها إذن تعج " بالفضائح " الخلقية.. الفضائح التي يصل الأمر بهذا المجتمع المنحل ذاته أن يصفها بأنها فضائح، ويبحث لها عن علاج؟

وما بالها تعج بالشذوذ الجنسي؟ [٤٧].

وما بالها تعج بحوادث الطلاق التي تزيد نسبتها عن أي بلد آخر على ظهر الأرض.. بما في ذلك مصر!

وهل دول الشمال في أوربا ينقصها الاختلاط، أو التهذيب، أو التوازن الاقتصادي، أو الاستقرار السياسي، أو اي أمر من الأمور؟

فما بال التحلل الخلقي هناك شنيعاً إلى أقصى حد؟ الطالبة تذهب بنفسها إلى بيوت الطلبة لتستذكر معهم الدروس.. في الفراش! ومعها – قبل أن تذهب – وسائل منع الحمل من أدوات وأقراص!

ومؤقتاً.. لا أتحدث عن الأخلاق.

أتحدث عن الأمر من جهته النفسية البحتة.. أين هو الشبع الذي يحدثه الاختلاط، فيغني عن العمل الجنسي الكامل، بل يغني عن الإسراف فيه؟

الذي حدث في أوربا وأمريكا هو العكس. حدث سعار جنسي مجنون. كل الذي اختفى هو " التحايل " للحصول على المتعة المحرمة، والمعاكسة في الطرقات. وهذه لم تختف ترفعاً، وإنما اختفت من شدة التيسير!

فهل هذا الذي نريده؟ أو هذا الذي ندعو إليه – إن كنا في دعوتنا مخلصين.

هل " التهذيب " في عرفنا هو هذا الذي نراه في الغرب؟ هل حين تختفي المعاكسات نعتبر أن المجتمع قد تنظف، وأننا صرنا فضلاء؟ ولو كانت البيوت والنوادي والطرقات أحياناً تتحول إلى مواخير؟!

ليس للاختلاط غير هذه النتيجة في كل التاريخ.. كذلك كان في أثينا القديمة وروما القديمة وفارس القديمة والهند القديمة.. وكذلك هو اليوم بعد مئات السنين من التقدم و " التطور " والمدنية.

---

[٤٧] قلت في كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام ": إن انتشار الشذوذ الجنسي في فرنسا وأمريكا اللتين تتيحان كل فرص الإشباع الجنسي وتهيئان له كل وسيلة، أمر يستلفت النظر، ويبدو أن الشذوذ الجنسي في هذه الحالة ينتشر كلون من التغيير!

وحين أوازن بين كل " المضار " التي ينشئها عدم الاختلاط، وكل " التهذيب " الذي يحدثه الاختلاط، فأنا أختار الأول بلا تردد ولا حاجة إلى مزيد من التفكير!

*　　*　　*

على أن الحجاب التركي الذي تسرع صورته إلى الأذهان ليس هو المقصود من فكرة الإسلام.

ليس المقصود أن تختفي المرأة عن الرجل اختفاء كاملا حتى تشغل كل خيالاته المريضة.. ولا أن يختفي الرجل عن النساء.

المقصود فقط ألا ننشئ معه علاقة " خاصة " لا ترتبط برباط شرعي علني معلوم.

فهذا الباب هو الذي يدخل منه الشيطان، ولا يخرج منه على الإطلاق.

فهي تخرج وترى الرجال ويرونها.. بشريطة ألا تكون عارية قد خرجت للفتنة والصيد والإيقاع.

ليس الخروج هو الممنوع في ذاته.. وإنما الهدف هو موضع السؤال. تخرج لتتعلم؟ تخرج لتعمل؟ تخرج لترى الشمس والهواء؟ نعم. ذلك كله مباح. كله نظيف. كله مشروع. أما أن يكون في باطن إحساسها إثارة الفتنة وتصدي الأنثى للذكر.. ويكون العلم أو العمل أو النزهة ستاراً لكل ذلك.. فهنا يقع الحجر، لأن هذا أول الطريق الذي نهايته ما نراه في الغرب المنحل وفي الشرق المفتون.

وهي تتعامل مع الرجل ويتعامل معها.. يكلمها وتكلمه، ويناقشها وتناقشه، ويرشدها وترشده، ويتبادلان الخدمات التي تحتمها ضرورات الحياة، في هذا الجو النظيف المكشوف، الذي لا يخفي وراءه الفتنة، ولا تتخلله ضحكة فاجرة ولا نظرة جاهرة ولا حركة متخلعة ولا غمزة من طرف خفي.

أهداف نظيفة وسلوك نظيف.

*　　*　　*

وعواطفها؟ هل تملكها؟

ألا يثور في نفسها الحنين الفطري إلى الجنس الآخر؟ ألا يقع نظرها على رجل معين، فيحسن في نظرها، فتميل إليه، فتهواه؟ فما موقفها من المجتمع المسلم حينذاك؟

الإسلام نظام جاد..

وليس معنى الجد هو العبوس والتقطيب في قضاء الأمور! فالرسول الكريم هو الذي قول: " روحوا قلوبكم ساعة فساعة " (٤٨) وكان صلى الله عليه وسلم، لا يراه الناس إلا باشا مبتسما في الوجوه.

وإنما المقصود هو الجد في أخذ الأمور بلا رقاعة ولا خلاعة ولا التواء.

والعواطف في نظر الإسلام ينبغي أن تكون جادة، ويحترمها على أنها كذلك.

حب جاد وإعجاب جاد وميل جاد.. ومشاعر جادة.

يحكي القرآن عن ابنة شعيب، ابنة نبي، إعجابها بموسى عليه السلام، وتعبيرها لأبيها عن هذا الإعجاب في بساطة جادة لا تصنع فيها ولا تخلع ولا طراوة ولا تكسر ولا التواء: " يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ " (٤٩) فيزوجها إياه.

والذي يرويه القرآن هو النموذج الذي يحب للناس أن يعيشوا فيه. فهو لم يستنكر قولتها، و لم يشأ أن يعبر عن إعجابها بغير لفظه الصريح. و لم يجعله سراً تكتمه الفتاة في قلبها ولا تبوح لأهلها به.

والأسرة في المجتمع المسلم أسرة مسلمة. أي أسرة متفاهمة متعاونة مترابطة يسودها الود والوئام، وتلتقي على الصراحة والاحترام. وفي هذا الجو الودود العطوف، النظيف الصريح، تستطيع الفتاة أن تذكر عواطفها الجادة النظيفة التي لم يدنسها شيء، فتكون موضع التقدير أو النصيحة أو التفاهم على كل حال.

*　　*　　*

---

(٤٨) رواه أبو داود عن أنس.
(٤٩) سورة القصص " ٢٦ "

أما الدنس فلا يرضاه الإسلام.

الدنس الذي يسمونه الحب، وهو لهفة جنس ظامئ ملهوف.. هذا لا يلتقي مع فكرة الإسلام عن " الإنسان ".

الإسلام لا يحتقر الدوافع الفطرية ولا يكبتها ولا يستقذرها. ليس الجنس دنسا في ذاته ولا هو حرام [٥٠]. ولكن شرط الإسلام هو رجوع الإنسان إلى الفطرة: قبضة الطين ونفخة الروح. لا هذه وحدها ولا تلك. لا جسد ظامئٌ حيوان.. ولا روح متبتلة مترهبنة. كلاهما حرام.

وهو يبيح الزواج ويدعو إليه ويحببه للناس.

وفي الزواج يجد الجنس منصرفه الطبيعي، ولكنه يجده على طريقة الفطرة السليمة. يجده مرتبطاً بهدف أعلى، وليس في ذاته كل الهدف المطلوب.

* * *

وهنا نصل إلى مشكلة الشاب الأعزب والشابة العزباء.

مشكلة " الحرمان ".. ما حلها في الإسلام ما دمنا نحرم كل العلاقات الجنسية غير الزواج؟

الحل الذي يراه الإسلام هو مجموعة من المراحل ومجموعة من الإجراءات.

فهو أولا: ينظف المجتمع من دواعي الإثارة المجنونة التي تستفز دماء الشباب وتجعل صبرهم على الجنس من أصعب الأمور. فلا عرى في الصحافة ولا الإذاعة ولا السينما ولا المسرح ولا القصة ولا الطريق.

وهو ثانيا: يجعل للحياة أهدافا جادة تستنفد الطاقة النفسية وترفعها عن الدنس المحظور.

---

[٥٠] انظر بالتفصيل فصل " المشكلة الجنسية " في كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام "

وهو ثالثاً: يستنفد الطاقة الحيوية الفائضة في مشغلة جسدية نفسية دائمة، فيشغل الفتى بالرياضة (كالفروسية والجهاد) ويشغل الفتاة بتدبير المنزل، وكلاهما جهد يرفع المشاعر ويشغلها إلى حين.

وهو رابعاً: يجعل العبادة جزءاً من النشاط الحي للإنسان، ويجعل ذلك وسيلة للتسامي والتصعيد.

ومع ذلك كله فهو يعلم أنها حلول مؤقتة لا تصمد إلى أمد طويل. فيقرر التبكير في الزواج، لتقصير فترة البطالة الجنسية التي تدفع إلى الشرور.

ولنكن صرحاء في هذه، كما طلبنا الصراحة في بقية الأمور.

إن الظروف الاجتماعية والاقتصادية الحالية المعقدة لا تسمح بالتبكير في الزواج.

هذا حق.. ولكنه ليس حقاً ملزماً، ولا واقعاً غير قابل للتغير.

الشاب في أمريكا يتكسب وهو في المرحلة الثانوية فيحصل على مصروف يده. ويتكفل بنفسه نهائياً بعد ذلك فيتزوج إذا أراد، ويدخل الجامعة وينفق على كل ما يعرض له من الشئون. ونظام التعليم ميسر هناك بحيث يمكن الطالب أن يتعلم ويعمل، ولا يتعطل عن هذا أو ذاك.

والذي يستطيعه البشر في أمريكا يستطيعه البشر المسلمون.

ونحن على أي حال نتحدث عن المجتمع المسلم ولا نتحدث عن الواقع الحالي الذي يستحيل فيه تنفيذ جزئيات الإسلام.

والمجتمع المسلم يكيف اقتصادياته بالطريقة التي تتمشى مع مبادئه الخلقية ومبادئه الروحية [٥١]، فتتلاقى هذه وتلك، ولا يصبح الإنسان ممزقاً بين مطالبه المادية والتكاليف التي يكلفه بها الدين.

والتنظيم الاقتصادي – على صعوبته والجهد الضخم المتواصل الذي يبذل فيه – ليس مستحيلا ولا متعذرا حين تتجه النية إليه ويرجح الإيمان بضرورته..

---

[٥١] انظر بالتفصيل كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام ".

أم الزواج فليست الفتاة في حاجة لأن تنزل السوق تعرض نفسها كما يعرض الرقيق على الطالبين. الإسلام أكرم لها من ذلك وأصون. لقد أعطاها كل حقوق الإنسان كاملة. أعطاها الحق في أن تخطب لنفسها إذا أرادت، وأعطاها الحق في قبول الخطيب أو رفضه، وأوجب أخذ موافقتها على الزواج وإلا فهو باطل ومردود.

ولكنه يجب أن يتم كل شيء فيه على نظافة.

وما دامت الفتاة تخرج وتتعلم وتعمل إذا أرادت تلبية للظروف المحيطة بها، فلا خوف من أن تظل حبيسة لا يراها رجل. ولم يحدث ذلك قط في التاريخ حتى في عهد الحجاب التركي الكامل الذي وضع المرأة في " الحريم ".

وحين يكون المجتمع نظيفاً وجاداً فلا بد أن يتزوج الرجال.. ما داموا لا يجدون المتعة الدنسة الميسرة التي تغنيهم عن الزواج. وعند ذلك لا توجد أزمة الزواج الحالية التي تضطر الفتاة أن تنزل بنفسها إلى السوق لصيد الأزواج.

ومن ثم فهذه المشكلة التي تقلق المجتمع الدنس في المدينة تذهب من تلقاء نفسها حين نكون مسلمين.

* * *

وفترة الخطبة فترة كافية لدراسة الأخلاق والطباع والشخصية، وليس من الضروري أن تكون الدراسة بالقبلات المختلسة في الخلوات. فذلك تحايل للمتاع الجنسي باسم الدراسة والاختبار!

إن من حقه وحقها أن يتلاقيا ويتعارفا ويتدارسا الأمور. ولكن في حشمة جادة وفي حضرة المحارم، لا في خفاء عن العيون.

هكذا يكون الجد في أخذ الأمور.

فإن عقدا العزم فلهما أن يرتبطا.. ومنذ ذلك الحين تصبح زوجته، ويستطيع إن أراد أن يستمتع معها بأحلام الخطبة السعيدة التي يحرص عليها الشباب فيؤجلان البناء إلى حين، ويخرجان ويتنزهان ويستمتعان في حل من الله ورسوله والمؤمنين.

وحين تتزوج وتحمل وتلد فشغلها الأول هو مترلها، ورعاية النتاج البشري الجديد.

ولكن ذلك لا يمنعها من النشاط الاجتماعي الجاد المخلص النظيف. فالإسلام لا يطيق أي لون من ألوان الدنس، سواء كان هذا الدنس رياء تتظاهر به النفس، أو فسادا في الأرض، أو انحرافاً عن سواء السبيل.

وحين تخرج المرأة من بيتها لتحضر حفلة راقصة. وحين تخرج لتلقى الرجال الأغراب ليغازلوها ويطروا جمالها. وحين تخرج ليذاع عنها أنها تعمل في الميدان الاجتماعي. وحين تخرج لتزور صديقاتها ليغتبن الناس. وحين تخرج لنشر الفساد في الأرض من أي سبيل، فخروجها ذلك حرام، ولو رضي به الزوج أو دفعها إليه.

وحين تخرج لتتعاون مع بنات جنسها في إصلاح المجتمع وإقامة العقيدة الصحيحة وتربية النفوس ومكافحة الفساد والجهاد في سبيل العقيدة.. فخروجها حلال ما دامت لا تتبرج ولا تخرج عن الحدود.

ليست العبرة بالخروج ذاته، وإنما بالهدف من ورائه وطريقة السلوك.

*　　*　　*

ذلك وضع المرأة المسلمة في المجتمع المسلم. وذلك هو التحرير الحقيقي للمرأة..

وحين تتحرر المرأة يتحرر المجتمع.. فإنها هي مربية الأجيال.

أما التحرير المزعوم الذي وصلت إليه المرأة في الغرب، والذي ينادي به دعاة التحرير في الشرق الإسلامي بدافع التقليد.. فهو مسخ للمرأة، ومسخ للرجل، ومسخ للأجيال.

وعلى أي حال فقد كانت للغرب ظروفه التي شرحناها من قبل، والتي تفسر هبوطه وانحرافه. وقد أعفانا الله من هذه الظروف الفظيعة المدمرة، أفلا نحمد الله بالرجوع إليه والسير في الطريق الذي ارتضاه؟

وإن المرأة في الشرق الإسلامي لفي وضع سيء غاية السوء. وضع ينبغي العمل على تغييره وتجنيد كل القوى لإحداث هذا التغيير. ولكن فلنعرف مواطن العلة لنعرف وسائل العلاج.

المرأة في الشرق الإسلامي، فيما عدا القلة القليلة النادرة.. امرأةٌ حيوان..

حيوان في القرى والأرياف مغلف بالقذارة الحسية والمعنوية.. والعبودية للرجل، وللأوضاع القائمة في المجتمع المتأخر البليد..

وحيوان في المدينة، نظيف منسق رشيق متراقص، ولكنه مع ذلك حيوان. حيوان مستعبد للشهوات.

فيما عدا القلة القليلة النادرة.. المؤمنة بالله على بصيرة.. والمؤمنة بنفسها عن طريق الإيمان بالله.

في الريف امرأة جاهلة مستعبدة لا كيان لها ولا حقيقة. يستعبدها الرجل والداً وأخاً وزوجا وقريبا.. إلا أن يكون لها مِلك.. وعندئذ تشعر بنفسها وتعتز بوجودها.. على طريقة الحيوان.

وفي المدينة امرأة منطلقة من كل قيد. تعلمت. وتزينت في ملبسها. وتعرت. وصادقت الرجال، ألواناً مختلفة من " الصداقة ". واشتغلت عاملة وموظفة. وصار لها دخل من كسب يديها. وأصبحت – في الظاهر – مستقلة عن الرجل متحررة من نفوذه.. ثم..

ثم استعبدت نفسها – باختيارها – لشهوة الحيوان. فعادت إلى الرجل مرة أخرى، لا كريمة على نفسها ولا مستعلية، وإنما تدفعها الغريزة الهابطة فتسلك سلوك الحيوان.

ومن ثم لم تتحرر..

إنها فقط انفلتت من القيد. وما زال في دمائها وكسة العبيد.

الحرية الحقيقية يوم يستعلي الإنسان – بجنسيه – على الضرورة القاهرة ودفعة الشهوات، ويحولها إلى سلوك حر فيه ترفع وفيه اختيار.

فهل هذه الفتاة المتزينة تملك نفسها أن تخرج بلا تزين ولا أصباغ ولا إبراز لمكامن الإغراء؟

هل تملك نفسها أن تخرج إلى الطريق لا يهمها ولا يشغلها أن تتصيد نظرة معجبة أو نظرة هابطة؟

إن كل امرأة تحب أن تكون موضع الإعجاب، أو في القليل لا تكون موضع النفور.

وذلك شعور طبيعي لا حرج عليه ولا انحراف فيه.

ولكن " الإنسان " يضبط دوافعه ولا ينساق معها إلى آخر الطريق.

وفرق بين المرأة التي تحب أن تكون موضع الإعجاب وموضع الاحترام بكيانها كله، وبين التي تنحصر في ظاهر الجسد، وتستجدي الإعجاب بالإثارة والإغراء.

الأولى متحررة تملك كيانها وتفرضه على الآخرين، والأخرى عبدة لما في كيانها من الدوافع وعبدة للآخرين.

إن التحرر الحقيقي عملية شاقة عسيرة، ذات تكاليف ضخمة في المشاعر والسلوك والأفكار. أما التحرر المزيف، بمعنى الانفلات من القيد، فما أسهل وما أيسر.. يوم يتحول المجتمع إلى مجموعة من بني الحيوان!

والمقياس الحقيقي لقيمة المرأة " المتحررة " هو الصورة التي تأخذها في حس الرجل الذي يعيش معها في المجتمع. فكيف ينظر الرجل إليها؟ هل هو " يحترمها " حقا. أمامها ومن ورائها؟ أم هو يتشهاها، ويتخيلها في حسه متعة فراش؟

إن هذا الرجل منحط حقا. إنه – مثلها – رجلٌ حيوان.

ولكنها هي التي تملك – حين تؤمن بنفسها عن طريق الإيمان بالله – أن ترفع قيمة نفسها، وأن تفرض على الرجل وجودها المترفع المتحقق الكيان. أما وهي تعرض نفسها عليه جسدا مزوقا مزينا متراقص الحركات، فلا تنتظر أن يكون لها في حسه مكان أكبر من متعة الفراش.

* * *

وحين تتحر المرأة ذلك التحرر الحقيقي، يتحرر الرجل، ويتحرر المجتمع، وتتحرر الأجيال.

وذلك هو الهدف الأكبر الذي يهدف إليه الإسلام.

وفي المجتمع المسلم تنحل كثير من العقد التي تملأ النفوس اليوم، وتنحل – من نفسها – كثير من المشكلات.

وحقا إن لكل مجتمع مشكلاته.. ولكن نوع المشكلات يختلف باختلاف درجة " الرقي " وطبيعة الأهداف.

المشكلات التي يواجهها المجتمع المسلم هي المحاولة الدائمة للبثات على العقيدة والارتفاع على الضرورات. وهو جهد ناصب لا يترك الإنسان في راحة، ولا يترك له فرصة يغفل فيها لحظات.. ولكنه جهد صاعد نبيل، يدفع بالبشرية إلى أعلا في ذات الوقت الذي يدفع بها إلى الأمام.

والمجتمع المنحل له عقده ومشاكله وعذاباته.. ولكن الجهد فيه جهد مُضيع لأنه يذهب في طريق الشيطان. ونظرة إلى العالم الذي تسيطر عليه الحضارة الغربية اليوم، العالم المهدد بالدمار في كل لحظة، كفيلة بالرد على كل سؤال!

وهذا المجتمع المسلم لا يخص المسلمين وحدهم.. وإنما هو يشمل كل من يوجد فيه من بني الإنسان.

هو بالنسبة للمسلمين عقيدة. وبالنسبة لغيرهم نظام. نظام يعيشون في ظله آمنين صاعدين، وهم في نجوة بعقيدتهم الخاصة لا يمسها مساس.

وبعد...!

وبعد فأنا أعلم أن الناس لن يصبحوا مسلمين بمجرد قراءة هذا الكتاب ولا ألف كتاب!

كلا. فلم يكن الاستعمار الصليبي والصهيوني لاهياً خلال قرنين من الزمان!

لقد وقع العداء بين الإسلام وبين الصليبية والصهيونية منذ ولد الإسلام. منذ قامت دولته في المدينة على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وظلت الصليبية والصهيونية تكيدان للإسلام منذ تلك اللحظة.. وستظلان تكيدان له كل لحظة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. والله رب المسلمين ورب الناس أجمعين هو الذي يقول: " وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ [٥٢] " " وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا [٥٣] ".

وقد تغلب الإسلام في جولات كثيرة، وتغلبت الصليبية والصهيونية في جولات.

وفي القرنين الأخيرين خاصة، حين تفرق العالم الإسلامي وتمزق، حين جمد وتحجر وضعف عن التقدم، لم تتوان الصليبية والصهيونية في انتهاز الفرصة السانحة، وانقضتا لتمزيق " الرجل المريض " وهمشه بعد أن يتناثر مزقاً متفرقات.

ومن كان يظن أن الغرب قد طمع في الشرق الإسلامي من أجل موارده الطبيعية، أو موارده البشرية، أو رغبة في إيجاد أسواق لتصريف فائض بضائعه، أو رغبة في استغلال فائض " رأس المال المالي " اذي يبحث عن زيادة الأرباح..

من كان يظن أن ذلك وحده هو الذي دفع الغرب لاستعمار الشرق الإسلامي فهو ساذج مضلل مخدوع.. مخدوع بالدعاية الصليبية ذاتها التي صورت الموقف على هذه الصورة لتخفي عن الأنظار هدفها الأصيل!

ومن كان في شك من أنها كانت حملة صليبية صهيونية موجهة ضد الإسلام بقصد القضاء على الإسلام واجتثاث جذوره.. فليقرأ التاريخ!

---

[٥٢] سورة البقرة " ١٢٠ ".
[٥٣] سورة البقرة " ٢١٧ ".

ليقرأ في كتاب " بروتوكولات حكماء صهيون " كيف وضع " التكتيك " اليهودي على أساس تدمير العقيدتين النصرانية والإسلامية، بكل وسائل التدمير، ومن ضمنها نشر آراء فرويد في أوسع نطاق ممكن، ونشر تعاليم ماركس. وكيف وضع التكتيك لتدمير العالم الإسلامي خاصة بإقامة " الوطن القومي " لليهود في قلب العالم الإسلامي ليكون مركز الوثوب ونقطة الانطلاق للتدمير.

وليقرأ كيف قام رئيس الوزارة البريطانية يوم الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ يقول في مجلس العموم، وهو يمسك بالمصحف في يده: إنه طالما بقي هذا الكتاب في أيدي المصريين فلن يقر لنا (للانجليز) قرار في تلك البلاد.

وليقرأ كيف اختار الإنجليز قسيساً متخرجاً في مدرسة اللاهوت ليضع لمصر البرامج التعليمية ويشرف عليها. فكان دنلوب مستشار المعارف المصرية وواضع سياستها، ليخرج من المدارس المصرية أجيالا لا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات!

وليقرأ كيف قام الأب " زويمر " في مؤتمر المبشرين الذي اجتمع بالشرق الأوسط في مبدأ هذا القرن، يرد على كلمات المبشرين الذين قاموا يعلنون إفلاس مهمة التبشير وإخفاقها في أداء رسالتها، إذ أنه لا يستجيب أحد من المسلمين للتبشير إلا أحد اثنين: طفل مخطوف من أهله وهو صغير فيربى على النصرانية وهو جاهل بأصل عقيدته، أو رجل معدم لا يجد سبيلا للعيش إلا الدخول في النصرانية ليحصل على لقمة الخبز، ويظل من المشكوك فيه أنه غيّر حقيقة عقيدته.. قام الأب " زويمر " مقرر المؤتمر يومئذ يقول: إن الخطباء قد أخطأوا أيما خطأ. وإنه ليس الهدف الحقيقي للتبشير هو إدخال المسلمين في النصانية. وإنما الهدف هو تحويل المسلمين عن التمسك بدينهم. وفي ذلك قد نجحنا نجاحاً باهراً عن طريق مدارسنا الخاصة، وعن طريق المدارس الحكومية التي تتبع مناهجنا.

وليقرأ في كتاب " الغارة على العالم الإسلامي " وهو من تأليف رجل فرنسي، كيف حرص المبشرون والمستعمرون على إثارة " قضية المرأة " في كل بلد حلوا فيه، والدعوة إلى " تحرير " المرأة وإخراجها سافرة إلى المجتمع لكي تنحل الأخلاق وتتحطم المناعة ضد الاستعمار.

وليقرأ في كتاب " الاستعمار والتبشير " تأليف عمر فروخ شرح الوسائل التي يستخدمها الاستعمار والتبشير. وكيف يتلازمان دائماً، ويتفاهمان دائماً، ويستمدان تعليماتهما من مصادر واحدة على الدوام.

وليقرأ في كتاب " الإسلام على مفترق الطرق " تأليف " ليوبولد فايس " كيف كان المستشرقون الذين يأخذ مفكرو العالم الإسلامي أقوالهم على أنها قضية مترلة، يصدقونها ويكذبون بها القرآن، كيف كان هؤلاء المستشرقون مبشرين نصارى يغمسون البحوث " العلمية " في سخائم التعصب الديني الذميم.

وليقرأ في البحث المعجب الذي كتبه الدكتور محمد البهي في كتاب " الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ".

"كيف يستمد الغرب نفوذه السياسي على الشرق الإسلامي؟

وكيف يبقى تخلف المسلمين؟

وكيف تنفس الصليبية عن حقدها؟

هذه الأسئلة الثلاثة يرتبط بعضها ببعض في تصور الغرب المسيحي المستعمر، ويحرص على أن تبقى متصلة بعضها ببعض في مباشرة سلطته هنا في الشرق، على أن وجود أي واحد منها وتمتعه بالبقاء كفيل بتمكين الوجود للأمرين الآخرين.

لهذا، منذ أن باشر النفوذ الغربي سلطته في رقعة الشرق الإسلامي، ابتدأ يعمل على تخلف المسلمين وعلى تنفيس الحقد الصليبي. وليس هناك طريق آخر لتحقيق هذه الغاية سوى تناول " مادة التوجيه المحلية " وجعلها غير صالحة. ولم يكن هناك في توجيه الشرق الإسلامي سوى الإسلام والتراث الإسلامي الذي خلفه المسلمون في شرح إسلامهم. وإفساد الإسلام والتراث الإسلامي إذن، غرض أولي للمستعمر الغربي. واختار وسيلته لذلك فيما أبرزه من المفارقة بين الغرب والشرق من تقدم الأول وتأخر الثاني. وابتدأ " العلم " وابتدأت " الدراسة " هناك تبحث عن أسباب هذه المفارقة. وتركزت الأسباب أخيراً في المقابلة بين المسيحية والإسلام.

المسيحية دين المتقدمين، والإسلام دين المتخلفين!

وهنا قام بعض المسلمين ينادي باتباع الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وفكر طبيعي. ولكن لا يكون هذا الاتباع مثمراً للشرق الإسلامي إلا إذا اتخذ موقفاً من الإسلام يقربه من المسيحية! ".

* * *

نعم. من كان في شك من الحملة الصليبية الراهنة من الشرق والغرب، ومن كان في شك من الحملة الصهيونية الراهنة... فليقرأ التاريخ!

وسيعرف – حين يقرأ التاريخ – كيف حرصت الصليبية والصهيونية على تنفير المسلمين من دينهم، وتشويه صورته في أذهانهم، وتصويره على أنه تأخر وانحطاط وجمود ورجعية ينبغي للإنسان أن يسرع بالانسلاخ من معرته، والانفلات من جهالته، والانعتاق من أوزاره.

وسيعرف كيف كان الدور المنظم المدروس المنفذ بدقة لتحطيم الشرق الإسلامي من قواعده، بتقويض دعائم الدين، وحل عرى الأخلاق، والإطاحة بالتقاليد، وتخريج " دعاة " من بين المسلمين أنفسهم ينادون بتحطيم الدين والأخلاق والتقاليد، ودفعهم إلى المناصب الكبيرة ومراكز التوجيه، لكي تستتر وراءهم الصليبية والصهيونية، وينخدع المسلمون بأقوالهم، على أنهم مسلمون.. مجددون!

وسيعرف أخيراً أن جهود قرنين كاملين من الزمان، وما ترسب في نفوس المسلمين من أثر هذه الجهود، لن يقضي عليها صيحة عابرة في كتاب!

كلا! إني أعلم أن الناس لن يصبحوا مسلمين بمجرد قراءة هذا الكتاب ولا ألف كتاب.

ومع ذلك فواجب الكاتب المخلص أن ينبه الناس ويطلق النذير.

إننا نواجه أعداء لن يكفوا لحظة عن عدائنا ومحاولة القضاء علينا. نواجه الصليبية العالمية والصهيونية العالمية. ممثلة في الاستعمار الغربي أو الشرقي. وممثلة في إسرائيل.

ونحن في حاجة إلى كفاح دائم لمواجهة هؤلاء الأعداء.

وليس الكفاح بالتمني، وبالحماسة الجوفاء في داخل النفوس.

الكفاح عرق ودماء ودموع.. الكفاح تضحيات دائمة بالنفس والمال والجهود.

والأمم المنحلة لا تعرف الكفاح..

لا بد من عقيدة.. لا بد من عقيدة.. لا بد من عقيدة.

لا بد من عقدة متينة محكمة الرباط، تظل تقاوم الضغط طويلا قبل أن تنحل. أما إذا ربطت ربطة سهلة خفيفة فإنها من أول جذبة تنحل وتسلس القياد.

والأمم تعيش على الجيل الصلب عدة أجيال قبل أن تصل إلى الهاوية. ومن ثم يؤدي هذا الجيل دوره مضاعفاً، لنفسه وللأجيال التالية.

ولكنها حين ترفض من الأصل مبدأ الصلابة، وتظنه تزمتا بلا ضرورة، فإنها تظل تهوى إلى المنحدر بلا عوائق، وتنتهي في النهاية إلى البوار.

ونحن – بصفة خاصة – أحوج الناس إلى عقيدة.

إننا – بلا عقيدة – شعب سهل رخو متميع سريع الانحلال.

وبالعقيدة نصنع المعجزات..

وتاريخنا كله هو هذه الحقيقة.

نتمسك بالعقيدة فترة أو نفيء إليها فتدب فينا روح البطولة وروح الجد وروح الكفاح. ونصنع في فترة قصيرة من الزمن أعاجيب تحتاج في صنعها إلى أجيال.

ونتخلى عن العقيدة أو نتبلد عليها فإذا نحن فتات متهافت لا قوام له يمسكه عن الانهيار.

وشعوب أوربا، المنحلة الأخلاق، المبتعدة عن العقيدة، ستتذاوب حتما وتنتهي إلى البوار حسب سنة الله في الأرض: " وَلَنْ تَجدَ لسُنَّة اللَّه تَبْديلاً " ولكنها – لأسباب متعددة في بيئتها وبنيتها – بطيئة التحلل شديدة الإصرار. يتبين ذلك في قدرتهم الهائلة على الإنتاج وجلدهم على العمل. العامل هناك والموظف يشتغل ست ساعات كاملة (فيما عدا نصف ساعة للراحة وتناول الطعام والشراب) ست ساعات من العمل الحقيقي، لا يقرأ صحيفة ولا يحدث جاره ولا يروي نكتة ولا يعلق على خبر ولا ينصرف لحظة عن الإنتاج.

فمن منا يفعل ذلك أو يطيقه؟

والعامل الإسرائيلي الذي يجاهد العرب ويغتصب أوطانهم، يعمل ست ساعات متوالية بأجر مخفض، ثم يتطوع بساعات أخرى من العمل دون مقابل، لزيادة الإنتاج.

فمن منا يفعل ذلك أو يطيقه؟

هؤلاء هم أعداؤنا فلنعرفهم.

وينبغي أن نكون نحن أشد جلداً وأقوى عزيمة لكي نصمد في كفاحهم ونغلبهم.

ونحن مستطيعون ذلك قطعاً بإذن الله، لأننا جربنا أنفسنا من قبل فصنعناه.

ولكنا في ذلك نحتاج إلى عقيدة. نحتاج إلى العقدة الصلبة التي تقاوم الضغط طويلا قبل أن تنحل. نحتاج إلى النواة الصلبة التي لا تنكسر ولا تلين.

نحتاج ألا نكون متميعين رخوين أطرياء..

نحتاج أن تختفي العيون الزائغة والنفوس الشاردة والضحكات الرقيعة والمشية المتخلعة والكلمات البذيئة والمشاعر المتلمظة على متاع الحيوان.

نحتاج أن تكون لنا أخلاق وأعراض وتقاليد.

نحتاج أن يكون نساؤنا – منشئات الأجيال – نفوساً آدمية لا قطعاً من اللحم الفائر والجسد الشهوان.

نحتاج أن ترتفع مشاعرنا من وهدة الجنس. وتكون عواطفنا جادة وأفكارنا جادة ونفوسنا نظيفة.

نحتاج إلى شباب مستقر نفسياً لكي يقدر على بذل الجهد ويقدر على الكفاح. ولن يقدر على ذلك وهو يقضي وقته وجهده متشردا في الشوارع يحوم كالكلاب.

* * *

وأنا أعلم البواعث العديدة التي تنفر الشباب من الإسلام.

وأعلم أن الناس لن يصبحوا مسلمين بمجرد قراءة هذا الكتاب.

ومع ذلك لا يخامرني شك قط في أن المستقبل هو مستقبل الفكرة الإسلامية.

ليس من الضروري أن أشهد بنفسي تحقق الفكرة في المستقبل القريب.

ولكن عمر الأمم لا يقاس بعمر الأفراد، ولا يقاس بالمدى القريب.

وأنا أحس - ولا يخامرني شك - أن الإسلام ليس دين هذه البقعة وحدها، ولكنه سيكون غداً نظام البشرية.. نظام البشرية ولو لم تعتنق دين الإسلام.

لقد انحرفت أوربا عن العقيدة ووصلت في ذلك إلى نهاية القرار.

ولقد جربت الحضارة المادية الكافرة الملحدة المبتعدة عن الله.

جربتها أول مرة مع الرأسمالية..

وكفرت بالرأسمالية.. لم تجد فيها النظام المنشود..

وجربتها بعد ذلك مع الشيوعية..

وسوف تكفر بالشيوعية في الغد القريب أو الغد البعيد.

سوف تجد ان الشيوعية لا تعطيها الأمل المنشود.

إن أعطتها الطعام والمسكن والجنس.. " المطالب الرئيسية " التي حددها " ماركس " في المانيفستو (الإعلان الشيوعي).. فإنها لا تعطيها الأمن والراحة وغذاء الروح.

ستظل البشرية تحس أن شيئاً - ما - في كيانها لم يشبع بعد. لم تشبعه الشيوعية، ولم تشبعه الحضارة المادية الكافرة الملحدة المبتعدة عن الله.

عندئذ سترتد إلى العقيدة.

سترتد إلى نظام يشمل واقع المادة وواقع الروح. نظام يشرع للأرض وهو متجه إلى السماء. نظام يوحد بين شقي هذا الكائن الآدمي: قبضة الطين ونفخة الروح.

وهذا النظام هو الإسلام.

لا يوجد غيره في الأرض يشتمل على هذه الحقيقة.

وليس من الضروري أن يعتنق الناس في الغرب العقيدة الإسلامية. ليس من الضروي أن تصبح أسماؤهم " أحمد " و " محمد " و " محمود ".

ولكنهم سيفيئون إلى الفكرة الإسلامية بحكم الضرورة. بحكم التجربة المرة التي عانوها قرنين من الزمان، وما يجد من أيام، فانتهت بهم إلى الرعب القاتل والدمار الرهيب.

وأولى بالمسلمين، وهم يملكون هذا الزاد الضخم، أن يكونوا أول من يفيء إلى هذه العقيدة وينتفع بما فيها من طاقات.

أولى بهم أن يعودوا إلى مركزهم التاريخي الأول: لا في ذيل القافلة ولكن في مقدم الزمام.

وفي استطاعتهم أن يكونوا كذلك حين يؤمنون بالله ويتخلقون بأخلاق هذا الدين.

الفهرس

- مقدمة

- جولة مع التاريخ

- حقائق وأباطيل

- فلنكن صرحاء!

- حين نكون مسلمين

- وبعد..!

هذه دعوتنا

- دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

- دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

- دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

- دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها

- دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم، {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}.

- دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم، واليهود وأحلافهم، لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

- ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.